دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر



ليو تولستوي

لحن كرويتزر

سلسلة عيون الادب العالمي
٣٨

ترجمة
سامي الدروبي

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر



ليو تولستوي

لحن كرويتزر

سلسلة عيون الأدب العالمي
٣٨

ترجمة
سامي الدروبي

١٩٥٩

تعهد

المؤسسة الثقافية
للنشر والتوزيع
بدمشق

الناشرون

دمشق : دار اليقظة العربية : شارع المتنبي هاتف ١٢٢٦٤
القاهرة : مؤسسة الخانجي : شارع عبد العزيز هاتف ٤٣١٤٨
بغداد : مكتبة المثنى : شارع المتنبي هاتف ٨٣٥٨٨
بيروت : المكتبة الشرقية : شارع المعرض هاتف ٣٣٢٣٤

١

« اما انا فاقول لكم كل من ينظر الى امرأة فيشتهيها فقد زنى في قلبه » .

(انجيل متى ، الاصحاح الخامس ، ٢٨) قال له تلاميذه :

« اذا كان هكذا امر الرجل مع المرأة ، فلا يحسن أن يتزوج »

فقال لهم :

« ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين اعطي لهم » .

(انجيل متى ، الاصحاح التاسع عشر ، ١٠ و ١١)

نحن في مطلع الربيع . القطار يجري منذ يومين . المسافرون الذين يقطعون مسافات قصيرة يدخلون الى العربة ويخرجون منها . غير أن هنالك ثلاثة أشخاص بدأت رحلتهم ، مثلي أنا ، منذ أول سير القطار : سيدة دميمة جاوزت الصبا ، تدخن ، منهوكة شاحبة ، ترتدي معطفا لا هو من معاطف الرجال ولا هو من معاطف النساء بل هو بين بين ، ورجل يصحبها ، مهذار مكثار ، في نحو الأربعين من عمره ، يرتدي ملابس جديدة ، ثم رجل منزو ، قصير القامة ، مايزال شابا ، ولكن شعره مضفر أشيب قبل الأوان ، في عينيه التماع واتقاد ، فهما تنتقلان من شيء الى شيء بمثل لمح البرق . وانه يرتدي معطفا عتيقا ياقته من فراء ، لاشك أنه خرج من بين يدي خياط حاذق ، وعلى رأسه قبعة من هذا الفراء نفسه ، فاذا فك أزرار المعطف رأيت تحته باديوفكا (١) ، وقميصا روسيا مطرزا . ومن غرائب هذا السيد أنه كان يطلق من حين الى حين اصواتا عجيبة

(١) سترة تزرر من جانب ، وتصل الى الركبة .

تشبه أن تكون سعالا أو ضحكا لم يكتمل • وقد حرص طوال الرحلة على أن يتحاشى كل علاقة او اتصال بالمسافرين • فكان اذا حاول جيرانه أن يحدثوه يجيب بكلمات موجزة حاسمة •وكان يقرأ أو يدخن وهو ينظر من خلال النافذة ، أو يتناول شيئا مما يضمه كيسه من زاد فيشرب قليلا من الشاي أو يزدرد لقمة من طعام • كان يخيل الي أن وحدته تثقل عليه ، فهممت غير مرة أن أتحدث معه ، ولكنه كان متى التقت نظراتنا (وهي تلتقي كثيرا لأننا متقابلان) ، يشيح بوجهه ، ويتناول كتابه أو ينظر من النافذة •

ففي سهرة اليوم الثاني ، اثناء توقف القطار في محطة هامة ، مضى هذا الرجل العصبي فجاء بماء ساخن وصنع لنفسه شايا • أما الرجل الآخر الذي كان يرتدي ملابس جديدة ، وهو محام فيما علمت بعد ذلك ، فقد ذهب يحتسي الشاي في المحطة نفسها مصطحبا جارته المدخنة التي كان معطفها لا هو من معاطف الرجال ولا هو من معاطف النساء بل بين بين •

وفيما كان هذا السيد وهذه السيدة غائبين ، دخل العربة أشخاص جدد ، بينهم شيخ حليق ، مغضن الوجه ، فارع القامة ، لعله تاجر ، كن يرتدي سترة من فراء ، وعلى رأسه خوذة من الجوخ ذات حافة ضخمة •

جلس التاجر أمام محل السيدة والمحامي ، ولم يلبث انشرع يتحدث مع فتى دخل العربة في تلك المحطة نفسها ، وهو بائع في مخزن • كنت جالسا جلسة منحرفة ، فكنت أستطيع ما دام القطار واقفا أن أسمع شذورا من حديثهما •

قال التاجر أولا انه ذاهب الى ارضه التي تبعد محطة واحدة • ثم دار الحديث ، كما يدور دائما ، على الاسعار ، والتجارة وتنافس الرجلان في تلاعب التجار بموسكو الآن ، وانتهى بهما المطاف الى

الكلام على معرض نيجني نوفجورود • فأخذ الفتى يقص على الشيخ ضروب الفجور والفسق التي تعاطاها في المعرض تاجر غني يعرفانه كلاهما ، ولكن الشيخ لم يدع الفتى يتم كلامه ، بل أخذ يروي له انواع اللهو والمجون التي أسهم هو نفسه فيها بمدينة كونافين • كان واضحا انه يعتز بمساهمته في ذلك ، فكان يقص على الفتى ، وقد لاح في وجهه الفرح ، كيف قام مع ذلك الصديق نفسه ، وهما في حالة السكر ، بمدينة كونافين ، بمأثرة تبلغ من الفحش ان المرء يستحي ان يتحدث عنها الا همسا •

فما ان سمع الفتى القصة حتى انفجر يقهقه قهقهة هزت العربة كلها ، واخذ الشيخ يضحك هو الآخر كاشفا عن سنين صفراوين • وقدرت أنني لن أسمع شيئا شائقا ، فنهضت لامشي على الرصيف قليلا قبل ان يتحرك القطار •

فصادفت المحامي والسيدة عند مدخل العربة يسيران ويتحدثان بحرارة •

قال لي المحامي الأنيس :

ـ لن يتسع الوقت ، فان دقة الجرس الثانية توشك أن تدوي•

وفعلا ، ما ان وصلت من سيري على الرصيف الى نهاية القطار، حتى قرع الجرس • فلما عدت الى العربة وجدت السيدة والمحامي ما يزالان غارقين في حديثهما الحار • ووجدت التاجر العجوز يجلس أمامهما صامتا ، وهو ينظر نظرة قاسية ، ويمضغ الكلام مستاء من حين الى حين •

وفيما أنا أمر قرب المحامي ، سمعته يقول :

ـ ثم اعلنت لزوجها صراحة أنها لاتستطيع أن تعيش معه ، ولا تريد ان تعيش معه ، لأن •

قال المحامي ذلك ، ثم راح يقص شيئا لم أستطع أن أسمعه .
ودخل ورائي بعض الركاب ، ومر مراقب التذاكر ، ووصل أحد ضباط الشرطة راكضا ، وظلت الجلبة تمنعني خلال مدة طويلة من سماع الحديث . حتى اذا عاد كل شيء الى الهدوء ، واستطعت ان أسمع صوت المحامي من جديد ، كان الحديث قد انتقل من حالة خاصة الى نظرات عامة . فكان المحامي يقول ان مسألة الطـــلاق تشغل الرأي العام في اوروبا الآن ، وأن أمثال هذه الحالات تكثر في بلادنا يوما بعد يوم . فلما لاحظ المحامي أن صوته أصبح الصوت الوحيد الذي يسمع قطع حديثه واتجه الى الشيخ يسأله ، وهـــو يبتسم ابتسامة تودد وتحبب :

ـ هذه أمور ما كان لها وجود في الماضي ، أليس كذلك ؟

فأراد الشيخ أن يجيب بشيء ، ولكن القطار اهتز في تلك اللحظة ، فرفع الشيخ خوذته ، واخذ يرسم اشارة الصليب ، ويدمدم بدعاء .

فحول المحامي نظره ، وانتظر في أدب . فلما انتهى العجوز من دعائه ، ورسم اشارة الصليب ثلاث مرات ، ووضع خوذته على رأسه قائمة ، واحكم دسها ، واستراح في جلسته وأخذ يتكلم ، فقال :

ـ قد كان لهذه الامور وجود في الماضي أيها السيد ، ولكنها كانت أندر منها الآن . ولا بد أن تجري الأمور هـــذا المجرى في أيامنا هذه ، لأن الناس قد أفرطوا في الثقافة .

كان القطار يزداد سرعة ، وكان اذ يمر على مفاصل السكك يحدث ضجة قـــوية ، فأصبحت لا أستطيع سماع الكلام ، ولكن الحديث كان شائقا فاقتربت .

وكان جاري ـ الرجل العصبي المتقد العينين ـ يمد أذنه ويصيخ بسمعه دون أن يتحرك من مكانه • كان واضحا أن هذا الحديث يهمه ويشوقه •

قالت السيدة وهي تبتسم ابتسامة خفيفة :

ـ لماذا تظن ان الثقافة تضر ؟

ثم اضافت تقول ، لاجوابا على الكلام الذي نطق به محدثها حقا ، بل على الكلام الذي تظن أنها سمعته ، وذلك على عادة كثير من النساء :

ـ هل الأفضل حقا أن يتزوج الخطيبان دون يستطيع احدهما رؤية الآخر ، كما كان يقع في الماضي ؟

ثم اتجهت الى المحامي والي أنا ، لا الى العجوز الذي كانت تحدثه ، فقالت :

ـ كان الخطيبان لايعرفان هل هما متحابان ، يمكن ان يتحابا يوما ، كان الفتى يتزوج أي فتاة ، وكانت الفتاة تتزوج أي فتى ، ليتألما بعد ذلك مدى الحياة • هل هذا في رأيك أفضل ؟

فكرر الشيخ يقول وهو ينظر الى السيدة في احتقار ، ولايجيب على سؤالها :

ـ لقد افرط الناس في الثقافة •

قال المحامي وهو يبتسم ابتسامة يسيرة لاتكاد تدرك :

ـ أود لو أعرف كيف تفسر العلاقة القائمة بين الثقافة وبين الخلاف في الزواج •

فاراد العجوز أن يجيب بشيء ، ولكن السيدة قاطعته تقول :

ـ ذهب ذلك الزمان •••

غير أن المحامي قاطعها بدوره قائلا :

ـ افسحي له مجال التعبير عن رأيه •

فقال العجوز جازما :

ـ كل حماقة مردها الى الثقافة •

ـ يزوجون شخصين غير متحابين ثم يعجبون لما يقع بينهما من خلاف •

هذا ما أسرعت تقوله السيدة ، وهي تلتفت نحو المحامي ، ونحوي ، وحتى نحو الفتى البائع ، الذي نهض عن مكانه ، واتكأ على ظهر المقعد ، وأخذ يصغي الى الحديث مبتسما •

قالت السيدة ، رغبة منها في ادهاش المحامي من غير شك :

ـ الحيوانات وحدها تتزوج على مشيئة سيدها • أما البشر فلهم ميولهم وعواطفهم •

قال العجوز :

ـ خطأ أن تقولي هذا الكلام ياسيدتي ، فالحيوان بهيم ، أما الانسان فيجب أن يعيش وفقا للقانون •

فأسرعت السيدة تقول :

ـ ولكن كيف يعيش المرء مع انسان لا يحبه ؟

أغلب الظن أن هذه الآراء كانت تبدو للسيدة جديدة كل الجدة •

قال العجوز بلهجة متعالمة :

ـ كان الناس في القديم لايولون هذا الأمر كبير اهتمام ، والآن انما أخذوا يهتمون به • أصبحت المرأة تقول لزوجها عند أيسر مناسبة « أريد أن أتركك » ، ودرج هذا حتى بين الفلاحين : « اليك قمصانك وسراويلك فخذها • انني ذاهبة مع فانكا • فضفائر شعره أجمل من ضفائر شعرك ! » مارأيك في هذا ؟ ان أول شيء يجب ان يتوافر في المرأة هو الخوف •

نظر المستخدم الى المحامي ، ونظر الى السيدة ، ونظر الي ، وفي فمه ابتسامة يحبسها ، مستعدا لتأييد كلمات العجوز أو للضحك منها تبعا لما سنستقبل به هذه الكلمات .

قالت السيدة :

ـ أي خوف تعني ؟

ـ خوف المرأة من رجلها .

ـ لا يا عم ، هذا زمان مضى وانقضى .

قالت السيدة في شيء من الحنق .

فقال العجوز وهو يهز رأسه :

ـ لا يا سيدتي ، ذلك الزمان لايمكن ان ينقضي . لقد خلقت حواء من ضلع الرجل ، وستظل كذلك الى آخر الدهر ...

قال العجوز ذلك وقد لاح في وجهه من القسوة ومن معاني الظفر ما جعل الفتى المستخدم يعتقد فورا ان التاجر قد أحرز النصر ، فأخذ يضحك ضحكا صاخبا .

قالت السيدة ملتفتة الينا دون أن تريد الخضوع :

ـ هكذا تفكرون انتم معشر الرجال .... تهبون الحرية لانفسكم وتريدون ان تحرموا منها النساء وان تسجنوهن . ولاشك في أنكم تبيحون لأنفسكم كل شيء .

فقال التاجر يتابع كلامه في غمز :

ما من احد يمنح اذنا . ولكن الرجل لا يحمل الى البيت شيئا ، أما المرأة الزوجة فهي آنية سريعة العطب .

كان واضحا أن لهجة الثقة التي كان يتحدث بها العجوز قد أخذت تنتصر على مستمعيه ، حتى أن السيدة نفسها أحست بأنها غلبت ، ولكنها لم تشأ بعد ، أن تستسلم . قالت :

ـ نعم ، ولكنني أعتقد أنك توافقني على أن المرأة انسان

كالرجل سواء بسواء . فماذا يجب أن تعمل اذا كانت لاتحب زوجها؟

فلما سمع التاجر هذا الكلام اكتسى وجهه شكلا رهيبا وحرك حاجبيه وشفتيه ، ثم ردد يقول :

ـ لا تحب ؟ لا تخافي ، انها ستحب .

أعجب الفتى البائع بهذه الحجة التي لم تكن منتظرة ، أعجب بها اعجابا خاصا ، فأطلق صوتا يحبذها ويؤيدها .

قالت السيدة :

ـ لا لن تحب ، واذا لم يكن حب ، فلا يمكن الاكراه على الحب .

قال المحامي :

ـ واذا خانت المرأة زوجها ، فماذا يحدث ؟

فأجاب العجوز بقوله :

ـ هذا أمر يجب أن لا يقع . يجب أن نراقب هذا الأمر .

ـ ولكن ماذا نعمل اذا وقع هذا الامر رغم كل شيء ؟ ذلك أنه يقع فعلا .

قال العجوز :

ـ يقع عند غيرنا ، أما عندنا فلا .

صمت الجميع ، فتحرك الفتى البائع ، واقترب أكثر من ذلك ، وأخذ يقول مبتسما ، لأنه لا يريد أن يقصر عن الآخرين في الحديث :

ـ وقعت فضيحة لشاب من عندنا . وهي حالة يصعب القطع فيها برأي . لقد تزوج امرأة خفيفة طائشة . فبدأت شيطناتها . كان الشاب رضيا مثقفا . بدأت علاقاتها بالكاتب . فحاول زوجها أن يردعها وأن يردها الى الصواب في رفق وصداقة . ولكنها لم تأبه . واستمرت في فسادها . سرقت ماله . ضربها . لا جدوى .

كانت تزداد سوءا . حتى لقد عقدت صلة مع يهودي غير معمد ، عفوكم اذا ذكرت هذا ... ماذا كان على الزوج أن يعمل ؟لقد هجرها هجرا تاما ... وعاش بعد ذلك عازبا ، ومضت هي لا تلوي على شيء .

قال العجوز :

ـ صاحبك رجل غبي أبله . لولا أنه أرخى الحبل على الغارب منذ البدء ، ولولا أنه لم يظهر شيئا من القسوة والصرامة حقا ، لبقيت له ... ثق بذلك . يجب أن تقمع الحرية منذ البدء . لا تأمن لحصان في الحقل ولا لامرأة في البيت (١) .

وفي هذه اللحظة دخل المفتش ، وطلب التذاكر من المسافرين الذين سينزلون في المحطة الآتية . فناوله العجوز تذكرته .

ـ نعم ، يجب شد البرغي منذ البدء ، والا ضاع كل شيء .

لم استطع أن أحبس نفسي عن الكلام ، فقلت :

ـ ولكنك رويت أنت نفسك منذ قليل كيف كان الرجال المتزوجون يعيشون في معرض كونافين .

ـ هذا شيء آخر .

قال العجوز ذلك ، ثم غرق في الصمت .

فلما دوى صوت الجرس ، نهض التاجر ، وأخرج كيسه من تحت المقعد ، وزر سترته ، وخرج من العربة وهو يرفع خوذته .



ما ان مضى العجوز حتى ارتفعت عدة أصوات تتكلم . قال

(١) مثل روسي قديم .

الفتى البائع :

ـ انه حقا من التوراة ، هذا العم .

وقالت السيدة :

ـ انه دوموستري (١) حي . ما هذه النظرة المتوحشة الى المرأة والى الزواج ! ..

وقال المحامي :

ـ نعم ، ما نزال بعيدين عن رأي الأوربيين في الزواج .

قالت السيدة :

ـ الشيء الأساسي الذي لا يفهمه هؤلاءالناس هوأنهلازواج بلا حب ، وان الحب هو ما يدعم الزواج ، وأن الزواج الوحيد الذي يمكن أن يعد زواجا حقا انما هو الزواج الذي يقدسه الحب.

كان الفتى البائع يصغي ويبتسم ، فهو يريد أن يحفظ أكثر مما يستطيع حفظه من هذه المحادثات الذكية ، عسى أن يستعملها يوما .

وفيما كانت السيدة تتكلم ، سمعت صوت ضحكة أو زفرة قطعت ، فنظرت ورائي ، فرأيت جاري ، الرجل المنزوي الأشيب ، ذا العينين المتقدتين ، الذي كان واضحا أن الحديث يشوقه ويهمه ، رأيته قد اقترب منا دون أن نلاحظ ذلك . كان واقفا ، متكئا على ظهر المقعد ، وكان يبدو مضطربا أشد الاضطراب . لقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة ، وتجعد خده بحركة عصبية .

قال مترددا :

ـ ماهو ذلك الحب الذي يدعم الزواج ؟

---

(١)أول قانون عائلي روسي .

فلما رأت السيدة أن محدثها في حالة من الاضطراب ، قالت في رفق ولطف ودقة :

ـ الحب الحق ... فاذا قام هـذا الحب بين الرجل والمرأة أمكن الزواج .

فقال الرجل المتقـد العينين ، قال خجلا وهو يبتسم ابتسامة خرقاء :

ـ نعم ، ولكن كيف نفهم هذه الكلمة : الحب الحق ؟

ـ كل انسان يعرف ما هو الحب .

قالت السيدة ذلك ، وكان واضحا أنها تريد أن تختم الحديث.

قال الرجل :

ـ أما أنافلاأعرف ،يجب أن تحددي ماتقصدينه بقولك الحب .

قالت السيدة بلا تردد :

ـ الأمر بسيط . الحب هو أن تؤثر شخصا على جميع من عداه .

ـ أوثره لأي مدة : شهر ، شهرين أو نصف ساعة ؟

قال الرجل الأشيب ذلك ، وأخذ يضحك .

ـ لا ، اسمح لي ، انك تتحدث عن شيء آخر .

ـ بل أتحدث عن الحب نفسه .

ـ ان السيدة تقول (كذلك قال المحامي وهو يشير بيده الى السيدة) ان الزواج يجب أن ينشأ عن التعلق ، أو قل ان شئت عن الحب ، وبهذا الشرط وحده يصبح الزواج أمرا مقدسا ، وهي تقول ثانيا ان الزواج لا يقوم على هذا التعلق الطبيعي ـ أعني الحب ـ الذي لا يشتمل على شيء من الاخلاق أوالالزام. أهذا ما أردتأن تقولينه ؟ (وجه المحامي هذا السؤال الى السيدة) .

فأحنت السيدة رأسها اشارة أنها توافق على هذا الشرح .

وتابع المحامي يقول :

ـ ثم ان ...

ولكن الرجل العصبي الذي أصبحت عيناه الآن كالنار المشتعلة ، وأصبح لا يستطيع أن يلجم نفسه ، لم يدع أن يتم كلامه ، بل أخذ يقول :

ـ انني أتحدث عن هذا الشيء نفسه ، عن إيثارك شخصا من الأشخاص على سائر من عداه . ولكنني أسأل : لأية مدة من الزمن ؟

ـ لأية مدة من الزمن ؟ لمدة طويلة ، وربما مدى الحياة .

قالت السيدة ذلك وهي ترفع كتفيها .

ـ هذا يحدث في الروايات ... أما في الحياة فلا ... قد يدوم هذا الايثار ، في الحياة ، بضع سنين أحيانا . وهذا نادر جدا ... والأغلب أنه يدوم أشهرا ، ان لم يكن أسابيع ، أو أياما ، أو ساعات (قال ذلك وهو يلاحظ بداهة أن هذه الآراء تدهش الجميع ، فكان يرضيه ذلك) .

فقلنا نحن الثلاثة في آن واحد :

ـ ما هذا الكلام ؟ لا ، لا ، من فضلك ...

حتى أن الفتى البائع نفسه أطلق صوتا يشجب به هذه الآراء .

فصرخ الرجل الأشيب بصوت يعلو أصواتنا جميعا :

ـ نعم ، نعم ، انكم تتحدثون عما يجب أن يكون ، أما أنا فأتحدث عما هو كائن . ان كل رجل يشعر نحو كل امرأة جميلة بما تسمونه حبا .

ـ فظيع هذا الكلام الذي تقوله ! ان بين البشر مع ذلك لعاطفة هي الحب ، لا تدوم أشهرا أو سنين ، بل تستمر مدى الحياة .

ـ هذه العاطفة لا وجود لها . واذا سلمنا بأن رجلا من الرجال آثر امرأة بعينها مدى الحياة ، فمن الممكن أن تؤثر هذه المرأة عليه رجلا آخر . كذلك كان الأمر دائما على هذه الأرض .

قال ذلك وهو يسحب سيجارة من علبة ، فيشعلها .

فأجاب المحامي بقوله :

ـ ولكن يمكن أن يكون الحب متبادلا .

ـ لا يمكن ... أئذا جئت بحبتين من حبات البازلاء فوشمتهما، ثم خلطتهما بكومة من الحب، وحركت الكومة ، عادت الحبتان فالتقتا جنبا الى جنب ؟ ان الحب المتبادل مستحيل استحالة التقاء هاتين الحبتين !

ثم ان الأمر ليس أمر احتمال فحسب ، بل هو أيضا أمر شبع . مثل القائل بالحب مدى الحياة ، كمثل القائل بأن شمعة يمكن أن تظل مشتعلة مدى الحياة .

قال ذلك وهو يسحب من سيجارته نفسا كبيرا في شراهة .

ـ ولكنك لا تتحدث الا عن الحب الجسدي . أفأنت لا تؤمن اذن بحب يقوم على أساس من الاشتراك في المثل العليا ، ومن القرابة الفكرية والروحية ؟

كذلك قالت السيدة ، فأجاب وهو يقهقه قهقهة خاصة به :

ـ القرابة الفكرية والروحية ! الاشتراك في المثل العليا ! ولكن ليس من الضروري في مثل هذه الحالة أن يكون ثمة مضاجعة (عفوكم اذا كان كلامي فظا غليظا) ، والاضاجع الناس بعضهم بعضا لاشتراك بينهم في المثل العليا .

قال ذلك وضحك ضحكا عصبيا .

فأجابه المحامي بقوله :

ـ اسمح لي . ان الوقائع تناقض كلامك . فنحن نرى الحالة الزوجية قائمة ونرى الانسانية كلها أو جلها تعيش على هذه الحالة وأن كثيرا من الناس ينعمون بحياة زوجية طويلة شريفة .

ضحك الرجل الأشيب مرة أخرى .

ـ تقول او لا ان الزواج يجب أن يقوم على الحب ، فاذا أعربت عن شكي في وجود هذا الحب ، الا أن يكون تعلقا جسديا ، حاولت أن تبرهن لي على وجود الحب بوجود الزواج • ليس الزواج في أيامنا هذه الا كذبا •

قال المحامي

ـ لا ، اسمح لي،انما أنا أقول ان الزواج كان ولا يزال قائما•

ـ لا أنكر أنه قائم • ولكن لماذا هو قائم ؟ لست اجحد أنه وجد وما يزال يوجد لدى أناس يرون في الزواج شيئا مقدسا يربطهم أمام الله ، ولكن ليس عندنا • الناس عندما يتزوجون من أجل ارواء الشهوة ، وينتج عن ذلك أحد شيئين : اما الخيانة واما الاذعان • والخيانة يمكن احتمالها • فالزوج والزوجة يتظاهران أمام الناس بالوفاء ، ثم يخون كل منهما الآخر • واذا كان هذا شرا ، فان هذا الشر يمكن احتماله • أما اذا أذعن الزوج والزوجة ، فارتضيا في الظاهر أن يعيشا معا مدى الحياة ، كان كل منهما يكره الآخر منذ الشهر الثاني ، ويتمنى لو ينفصل عنه • ولكنهما يعيشان في منزل واحد ، فينشأ عن ذلك أن يصبح البيت جحيما ، وبسبب هذا يندفع المرء الى الشراب ، أو ينتحر ، أو يسمم نفسه ، ويسمم الآخر •

كان كلامه يزداد سرعة ، فما يتيح لأحد أن يدس فيه كلمة واحدة • وشعرنا جميعا بضيق •

قال المحامي يريد أن يقطع هذا الحديث المزعج :

ـ لا شك أن في الزواج فترات حرجة •

ـ أظن أنك عرفتني •••

قال الرجل الأشيب ذلك ، بلهجة ظاهرها الهدوء •

ـ لا ، لم أسعد بمعرفتك قبل الآن ••

ـ ليست معرفتي سعادة ••• أنا بوزدنيشيف الذي مر بفترة من

الفترات الحرجة التي أشرت اليها ، أنا قاتل امرأته •••

قال ذلك وهو يلقي علينا نظرة سريعة واحدا بعد آخر • فلم يجد أحد منا ما يقوله ، فصمتنا جميعا • قال وهو يضحك ضحكته الساخرة :

ـ على كل حال ، لا قيمة لهذا كله • أرجو أن تعذروني • لن أزعجكم أكثر مما أزعجتكم الآن •

ـ ما أزعجتنا أبدا •••

قال المحامي ذلك دون أن يعرف لماذا •

ولكن بوزدينشيف عاد الى مكانه بعنف دون أن يصغي اليه • وأخذ المحامي والسيدة يتهامسان •

كنت جالسا الى جانب بوزدينشيف صامتا لا أتكلم ، لأنني لا أجد ما أقوله • وكان الظلام أشد من أن أستطيع القراءة ، فأغمضت عيني ، وتظاهرت بالنوم •

مضى المحامي والسيدة الى عربة أخرى من القطار بعد أن تناقشا في ذلك مع المفتش • أما الفتى البائع فقد استلقى استلقاء مريحا على المقعد ونام •

وظل بوزدنيشيف يدخن سجائره ، ويشرب من الشاي الذي أحضره من المحطة السابقة •

فلما فتحت عيني ونظرت اليه قال لي بلهجة حازمة :

ـ ربما كان يزعجك أن تظل قريبا مني بعد أن عرفت من أنا ؟ فاذا كان الأمر كذلك ، تركتك ومضيت الى مكان آخر •

ـ أبدا ، أرجوك •

ـ اذن فهل لك بقليل من الشاي ؟ انه قوي جدا •

قال ذلك وصب لي شيئا من الشاي • ثم أردف :

ـ انهم يتكلمون ويكذبون طوال الوقت •••

ـ أي موضوع تعني ؟

ـ ذلك الموضوع نفسه : الحب الذي يتحدثون عنه ويصفونه ويصورونه . هل تريد أن تنام ؟

ـ لا ، أبدا .

ـ هل تريد أن أقص عليك كيف وصلت الى ما وصلت اليه بسبب ذلك الحب ؟

ـ اذا كان لا يؤلمك ذلك .

ـ يؤلمني أن أسكت . اشرب الشاي أولا ... أم تراه قويا؟.

كان الشاي قويا في الواقع ، حتى لكأنه البيرة مرارة . ولكنني شربت قدحا . وفي هذه اللحظة مر المفتش . فتابعه جاري بنظرة خبيثة ، وهو صامت ، ثم لم يبدأ كلامه الا بعد أن غاب .



ـ اذن سأروي لك القصة .. ولكن هل تريد ذلك حقا ؟

فكرت اقول انني أرغب في ذلك كثيرا . فسكت ،ودلك وجهه بيديه ، ثم بدأ :

ـ كي أجيد الحكاية ، يجب أن أبدأ من البداية ، يجب أن أذكر لك كيف ولماذا تزوجت ، وماذا كنت قبل زواجي .

« كنت قبل زواجي أعيش كما يعيش سائر الناس ، أعني كما يعيش سائر الناس في بيئتنا . فأنا من أصحاب الاطيان ، ومتخرج من الجامعة ، ومن وجوه الطبقة النبيلة . فكنت أحيا حياة فاسدة معتقدا بأني أعيش كما ينبغي ، كسائر رجال بيئتنا . وكنت أظنني رجلا فاضلا وعلى جانب عظيم من رفعة الخلق . فانني لم أكن أغرر بالنساء ، ولا كانت لي ميول مخالفة للطبيعة ، ولا كنت أجعل المجون والدعارة هدف

حياتي ، ككثير من رفاقي ، وانما كنت أتعاطى اللذة في رصانة ووقار ، من أجل صحتي • وكنت أتحاشى من النساء أولئك اللواتي يمكن أن يربطنني بهن لولادة طفل أو لتعلق منهن • والواقع أن أولادا ولدوا وأن تعلقا وقع ، ولكنني تجاهلت ذلك • ولم أكن أعد ذلك من رفعة الأخلاق فحسب ، بل كنت أعتز به وأزهو » •

وهنا توقف عن الكلام ، فضحك ضحكته الساخرة ، تلك التي يضحكها كلما ساورته فكرة ما • قال صائحا :

« وهذا بعينه هو ما يثير الاشمئزاز أكثر من أي شيء آخر • ذلك أن الفساد ليس حالة جسميه ، فما من عهر جسمي يمكن ان يكون هو الفساد • وانما الفساد الحقيقي أن تتحرر من كل ارتباط نفسي بالمرأة التي تعاشرها معاشرة جسدية • وهذا التحرر هــــو بعينه ما كنت أعتز به • مازالت أذكر الى الآن كيف تألمت ذات مرة أشد الألم حين استسلمت لي احدى النساء عن حب صادق شعرت به نحوي ، فلم يتسع وقتي لأن أدفع لها مالا ! انني لم اهدأ بالا الا حين استطعت أن أبعث اليها بمبلغ من المال ، مبينا بذلك أنني لم أكن أرتبط بها أي ارتباط روحي • لاتهز رأسك مؤيدا كأنك توافقني على رأيي (بهذا هتف فجأة) • أنا أعرف هذا • اننا جميعا ـ وأنت أيضا ، الا أن تكون استثناء نادرا ـ نرى هذه الآراء التـــي كنت أراها أيامئذ • على كل حال لا تؤاخذني • ولكن هذا كله فظيع ، فظيع ، فظيع ! " •

ـ ما هو الفظيع ؟

ـ هذه الهاوية من الضلالات التي نعيشها ازاء النساء ، وهــذه العلاقات التي نعقدها معهن • نعم ، انني لا أستطيـــع أن أحتفظ بهدوئي حين أتحدث عن هذا الأمر ، لابسبب الفترة الحرجة كما قال ، فحسب ، بل لأن عيني قد انفتحتا منذ تلك الفترة ، فأصبحت

أرى كل شيء في ضوء جديد • أصبحت أرى كل شيء من قفاه !

قال ذلك واشعل سيجارة ، ثم اتكأ بكوعيه على ركبتيه وراح يتكلم •

كان يستحيل علي أن أميز وجهه في الظلام • ولكنني كنت أسمع صوته المقنع الجميل ممتزجا بقرقعة عجلات القطار •

٤

« نعم انني لم أفهم أين يثوي سبب كل شيء ، لم أفهم ما يجب أن يكون ولا فظاعة ما هو كائن ، الا بعد ان تألمت كما تألمت ، لم أفهم هذا كله الا بفضل ما عانيت من عذاب •

« انظر وكيف ومتى بدأت الاحداث التي أدت بي الى أن ارتكب الفعل الذي ارتكبته • لقد بدأ ذلك حين لم أكن قد بلغت السادسة عشرة من عمري • كنت في المدرسة الثانوية ، وكان أخي الاكبر طالبا في السنة الأولى من الجامعة • لم أكن قد عرفت النساء بعد ، ولكنني ، كسائر أطفال بيئتنا التعساء ، كنت قد فقدت براءتي: كان قد جرفني الاشقياء الى الفساد • كانت المرأة ، منذ ذلك الحين ، (لا أعني امرأة بعينها ، بل المرأة جملة ، المرأة كمخلوقة لطيفة ناعمة ، كجسد عار) كانت المرأة تقض مضجعي • كانت خلواتي غير نقية ، غير طاهرة • كنت أتعذب كما يتعذب تسعة وتسعون في المائة من صبيتنا • كنت أخاف ، وأتألم ، وأصلي ، وأزل • كنت أستسلم للفجور خيالا وواقعا ، ولكنني لم أكن قد خطوت الخطوة الأولى بعد • كنت أنهد وحدي ، دون أن أجر معي كائنا انسانيا آخر • ثم جاء رفيق من رفاق أخي ، وهو طالب مرح ، يقال انه فتى طيب أي انه أتفه الشباب طرا ، فعلمنا الشرب ولعب الورق •

وأقنعنا ذات يوم ، بعد أن شربنا ، أن نذهب الى هناك • ذهبنا •
كان أخي بريئا أيضا ، وانما زل في تلك الليلة • ولطخت نفسي ،
أنا الفتى الذي لم أبلغ السادسة عشرة من عمري لطخت نفسي
وساهمت في تلطيخ المرأة ، دون أن أفهم ماذا أعمل • لم أكن قد
سمعت من أحد ممن يكبرونني سنا بأن ما أفعله شر • والآن أيضا
لن يسمع أحد ذلك • صحيح أن هذا مستنكر في الأوامر والنواهي،
ولكن الأوامر والنواهي لاتفيد ! لافي الاجابة على اسئلة الكاهن اثناء
امتحان الدروس الدينية ، وهي تعد دون قواعد الصرف والنحو
خطورة • فأنا اذن لم أسمع يوما من أحد ممن يكبرونني سنا
وأحترمهم ، أن هذا الأمر شر • بالعكس ، كان هؤلاء أنفسهم
يجدون ذلك شيئا حسنا جدا ، كنت أسمع أن ما أعانيه من ألوان
الصراع والعذاب يزول متى فعلت ذلك ، وأن ذلك مفيد للصحة ،
وكانت الكتب تقول هذا الشيء نفسه • أما رفاقي فكانوا يجدون
في هذا ميزة من الميزات • خطر المرض ؟ لقد احتاطت الحكومة
نفسها لهذا الأمر ، انها تعنى بهذا الموضوع ، فتراقب بيوت الدعارة ،
وتكفل سيرها سيرا مضطردا ، وتسهل على تلاميذ المدارس الثانوية
أن يفسقوا دون خوف • ان هناك أطباء يسهرون على هذا الأمر ،
ويتقاضون على ذلك أجرا • وهم يؤكدون أن الفسق مفيد للصحة ،
فينظمون الدعارة تنظيما سليما مضطردا • واني لأعرف أمهات تسهر
على صحة ابنائها هذا النوع من السهر • ان العلم يرسلهم الى بيوت
الدعارة • »

ـ العلم ؟ ماذا ؟

ـ أليس الأطباء كهنة العلم ؟ ان كهنة العلم هؤلاء هم الذين
يفسدون الشبان ، اذ يؤكدون أن ذلك مفيد للصحة ، ثم يعالجونهم
بعدئذ من مرض الزهري في كثير من الاهتمام •

ـ هل يجب أن يعالج الشبان من مرض الزهري ؟

ـ لو أنفق جزء من مائة جزء مما ينفق من جهد لمعالجـــة الزهري ، لو أنفق على القضاء على الدعارة لأمكن أن يستأصل مرض الزهري نفسه منذ مدة طويلة • أما الآن فان الجهود تنصرف لا الى القضاء على الدعارة ، بل الى انمائها وضمان استمرارها • على كل حال ، ليس هذا هو ما يعنيني الآن • المهم أنه وقع لي ذلك الشيء الرهيب الذي يقع لتسعين في المائة ، ان لم يكن لاكثر من ذلك ، من رجال بيئتنا ، حتى بين الفلاحين ، وهو انني لم أسقط لأن امرأة بعينها فتنتي ، فما من امرأة أغرتني ، وانما سقطت لأن الذين حولي كانوا لا يرون في هذا العمل سقوطا ، بل يرى فيه بعضهم وظيفـــة مشروعة مفيدة للصحة ، ويرى فيه بعضهم الاخر تسلية طبيعية تغتفر لشاب • كنت لا أعرف أن هذا بعينه هو السقوط ، فاستسلمت لما كنت أعده لذة من جهة ، وضرورة من جهة أخرى ، كما تعلمت ذلك في عمر من الأعمار • اندفعت الى هذه الدعارة اندفـاعي الى الشراب والى التبغ • على أن هذا السقوط الأول كان يشتمل على شيء خاص مؤثر • أتذكر أنني أصبحت حزينا أهم أن أبكي حتى قبل أن أخرج من الغرفة ••• كنت أريد أن أبكي عذريتي وآرائي في المرأة • نعم ، لقد فسدت علاقاتي البسيطة الطبيعية بالمرأة فسادا
في المرأة • نعم ، لقد فسدت علاقاتي البسيطة الطبيعية بالمرأة فسادا
لا يمكن اصلاحه • فمنذ ذلك الحين أصبح يستحيل علي أن أعقد صلات طاهرة مع امرأة • اصبحت فاسقا • تلك حالة جسيمة تشبه حالة الادمان على المورفين أو الشراب أو التبغ • فكما أن المدمنين على هذه الأمور يصبحون أشخاصا غير أسوياء ، كذلك من يعاشر عدة نساء نشدانا للذة ، يفسد الى الأبد ، يصبح فاسقا • انه يعرف من

وجهه ، ومن حركاته ، كما يعرف المدمن على السكر أو على المورفين من وجهه ومن حركاته • والفاسق قد يكافح ميوله ، فيعف ، ولكن علاقاته بالمرأة لن تكون يوما علاقات طبيعية ، بسيطة ، صافية ، نقية• انك تستطيع أن تعرف الفاسق من طريقته في النظر الى امرأة ، من طريقته في التدقيق في امرأة • ولقد أصبحت فاسقا ، وظللت كذلك ، وهذا ما ضيعني •

٥

« هذا ما وقع • ثم اني أوغلت في ذلك أبعد فأبعد • فعقدت انواعا من العلاقات لاحصر لها • اللهم اني لأخاف أن اتذكر جميع المفاسد التي اقترفتها في هذا الاتجاه • هكذا أتذكر نفسي الآن ، وأتذكر أن رفاقي كانوا يلومونني على براءتي المزعومة ••• على كل حال ، أنا لا أعد شيئا اذا قست مغامراتي بما أسمعه عن مغامرات كثير من الشبان المترفين ، والضباط ، والباريزيين•ان هؤلاء الفجرة الذي قاربوا الثلاثين من العمر ، وأخفى ضميرهم مئات من الجرائم ارتكبوها في حق النساء مثلي ، لايصدون عن دخول قاعات الاستقبال وصالات البالات ، مغتسلين حالقين معطرين ، مرتدين الفراك أو غيره من الألبسة الرسمية علامة الطهارة ••• يالهذا المنظر الرائع •

«فانظر اذن فيما ينبغي أن يحدث وفيما يحدث في الواقع•ان الشيء الطبيعي ، حين يأتي رجل من هذا النوع من الرجال ،فيقترب من أختي أو من بنتي في اجتماع من هذه الاجتماعات ، من الطبيعي أن أمسكه أنا الذي أعرف حياته ، وأن أنتحي به جانبا لأقول له : « يا عزيزي ، انا اعرف الحياة التي تعيشها ، وأعرف مع من تقضي لياليك • ما مكانك هذا المكان • فليس هنا الا فتيات طاهرات بريئات • اذهب » • ذلك ما ينبغي أن يحدث • أما ما يحدث في الواقع فاننا نطرب ونتهلل حين يظهر رجل من هؤلاء الرجال ، فيخاصر أختي أو ابنتي في الرقص ، شريطة أن يكون على صلة بالمجتمع الراقي وأن يكون غنيا • فلعله بعد ريجولبوش أن يشرف ابنتنا أيضا • ولا ضير أن تكون فيه آثار مرض • فالمرض تمكن معالجته في هذه

الأيام . انني أعرف بنات كثيرات زوجهن ذووهن من رجال مصابين بمرض من الأمراض ، وكانوا في ذلك في كثير من الفرح والحماسة. يالها من فظاعة ! متى ينحسر القناع عن هذه الشناعات والأكاذيب! »

ضحك الرجل أثناء حديثه عدة مرات . فلما بلغ هذا المبلغ من الكلام أخذ يشرب الشاي . كان الشاي قويا جدا ، اذ لم يكن هناك ماء يخفف به . وقد شعرت بشيء من الاضطراب بسبب قدحي الشاي اللذين شربتهما . ولعل الشاي قد أثر فيه هو أيضا ، فقد كان يزداد اضطرابه شيئا بعد شيء . وكان صوته يزداد حلاوة رنين وقوة تعبير . وكان يكثر من تبديل اتجاهه ، ويرفع قبعته ثم يضعها ثم يضعها ثم يرفعها . وكان وجه يتبدل تبدلا غريبا في الظلمة التي كانت تلفنا .

« نعم ، لقد عشت على هذه الحال حتى الثلاثين من عمري ، دون أن أهجر لحظة واحدة عزمي على أن أتزوج وعلى أن أنظم لنفسي حياة عائلية أرفع وأنقى . لذلك كنت أبحث عن فتاة تتيح لي بلوغ هذا الهدف . كنت أعيش حياة داعرة ، وكنت أبحث في الوقت نفسه عن فتاة نقية يمكن أن تكون جديرة بي ! ولفظت عددا من الفتيات لا لشيء الا لأنهن لم يكن على قدر كاف من النقاء في نظري . وعثرت أخيرا على واحدة تناسبني . انها احدى ابنتين لأحد أصحاب القصور في منطقة بنزا ، كان في الماضي غنيا ، ثم دمر غناه .

« ففي ذات ليلة ، بعد نزهة في القارب بينما كنت جالسا الى جانبها ، في طريق العودة الى البيت تحت أشعة القمر ، أعجب بالخطوط المتناسبة المنسجمة من جسمها الرشيق المغمود في الحرير ، وأعجب بضفائر شعرها ، قررت أنها قد خلقت لي . وبدا لي في ذلك المساء أنها كانت تفهم كل ما أحس به وكل ما أفكر فيه . وبدا

لي أن ما كنت أحس به وأفكر فيه شيء رائع • الواقع ان ثوب الحرير الذي كانت ترتديه هو الشيء الوحيد الذي كان يناسبها تماما ، وكذلك ضفائر شعرها • وبعد أن قضينا يوما في تواصل حميم ، أردت مزيدا من هذا التواصل الحميم • انه لغريب أمر الجمال هذا ! تقول لك المرأة الجميلة كلاما سخيفا لا قيمة له ، فتصغي اليها ، ولا تسمع كلاما سخيفا بل تسمع كلاما ذكيا • واذا حدثتك في شئون خسيسة رأيت في ذلك أمورا رائعة • فاتنة • فاذا لم تقل سخافات ولم تقم بأعمال تافهة خسيسة ، بل اكتفت بأن تكون جميلة ، اقتنعنا بأنها معجزات من معجزات الذكاء والخلق • لقد عدت الى بيتي وأنا في حالة من النشوة السكرى ، وقررت أنها ذروة الكمال وأنها لذلك جديرة بأن تكون زوجتي فلما جاء الغد خطبتها •

« انظر الى هذا الاضطراب ! بين ألف رجل من رجال بيئتنا ! ومن أفراد الشعب أيضا ، للأسف ، يصعب أن تجد واحدا لم يتزوج ، قبل زفافه ، عشر مرات على الأقل ، ان لم يكن مائة مرة ، أو حتى ألف مرة ، كدون جوان مثلا ، صحيح أنك تلقى في هذه الأيام ، كما أسمع عن ذلك وكما أستطيع أن الاحظه ، شبابا طاهرين حساسين يدركون أن الزواج ليس مزاحا ، بل شيئا خطير الشأن •

« اني لأسأل الله أن يمد هؤلاء الشباب بعون من عنده • ولكنك لم تكن تستطيع في أيامنا نحن أن تجد واحدا من هؤلاء بين عشرة آلاف شخص • ان الناس جميعا يعرفون ذلك ويتظاهرون بأنهم يجهلونه • ان جميع الروايات تصف عواطف ابطالها في كثير من الاسهاب والتفصيل ، وتصف الغدران والادغال التي تجول حولها هؤلاء الأبطال ، ولكنها اذ تتحدث عما شعر به البطل من حب عظيم نحو فتاة من الفتيات ، لا تقول لنا أبدا ماذا كان هذا البطل المحب

قبل ذلك ، لا تذكر لنا شيئا عن زياراته لبيوت الدعارة ، ولا عن علاقاته بالخادمات والطباخات ، وحتى بزوجات الآخرين . واذا وجدت روايات قليلة الحياء كهذه ، فان تداولها يمنع عمن يجب عليهن أن يقرأنها قبل غيرهن ،أعني عن الفتيات . ان الناس يتظاهرون أمام الفتيات بأنهم يعتقدون بأن الدعارة لا وجود لها ، مع أن هذه الدعارة تستغرق جزءا كبيرا من حياة مدننا وقرانا . ثم يبلغ الناس من شدة التعود على هذا الاخفاء أنهم يأخذون يعتقدون صادقين بأنهم على جانب عظيم من الخلق ، وأنهم يعيشون في عالم طاهر ، مثلهم في ذلك مثل الانجليز . فاذا بالفتيات ـ هاته الشقيات ـ يصدقن ذلك جادات . هذا ما كانت تعتقد به زوجتي المسكينة .

« أذكر انني أثناء الخطوبة قد أظهرتها على يومياتي التي يمكن أن تطلع منها على طرف من ماضي في أقل تقدير ، وأن تعرف آخر علاقة من علاقاتي خاصة . ذلك أنها كان يمكن ان تسمع شيئا عن هذا من الناس ، ولهذا كان لابد من أن أقص عليها ذلك . ما أزال اتذكر ما ظهر عليها من ذعر وحزن ويأس حين فهمت . واعتقدت في تلك اللحظة أنها أرادت أن تهجرني لماذا لم تفعل ذلك ؟ »

قال هذا ، ثم ضحك ، وشرب جرعة من الشاي ، وسكت .

٦

ثم هتف قائلا : « على كل حال ، هذا أفضل ، هذا أفضل .

« لم يقع لي الا ما أستحقه . ولكن الأمر ليس هو هذا . لقد أردت أن أقول أن هاته الفتيات التعسات هن اللواتي يخدعن في مثل هذه الحالات . والأمهات ، خاصة أولئك اللواتي رباهن أزواجهن يعرفن ذلك حق المعرفة . فاذا تظاهرن بأنهن يعتقدن

بطهارة الرجال ، كن في واقع الامر يتصرفن تصرفا آخر . انهن يعرفن كيف يجتذبن الرجال اليهن ، والى بناتهن ايضا ، فنحن ، معشر الرجال ، لانعرف ، ماذلك الا لأننا لا نريد أن نعرف ان العاطفة المنزهة الشعرية التي نطلق عليها اسم الحب لاتتوقف على مزايا روحيه ، بل على شيء جسدي صميم ، على تسريحة شعر ، على لون ثوب ، على تفصيلة رداء . أما النساء فيعرفن ذلك حـــق المعرفة . اسأل امرأة مغناجا خبيرة تريد أن تفتن رجلا ، واسألها أي الخطرين تؤثر أن تتعرض له : أأن تهتم أمام الرجل الذي تريد أن تغريه بأنها كاذبة أوقاسية أو حتى داعر أم أن تظهر لهذاالرجل في ثوب بشع رديء التفصيل ؟ ان أية امرأة تؤثر الحل الاول مافي ذلك شك .

فهي تعرف أن كل رجل يكذب حين يتحدث عن عواطفه الرفيعة وأن الحب وحده هو الذي يجذبه ، وأنه سيغفر من أجل الجسد كل الد... ، ولكنه لن يتساهل في أمر ثوب دميم لا ذوق فيه . ان المرأة المغناج تعرف ذلك معرفة كاملة ، والفتاة البريئة تحس بهذا الشيء نفسه احساسا لا شعوريا كالحيوانات سواء بسواء . ومن ثم نرى هذه الاثواب الحريرية الهفهافة الفظيعة ، ونرى هذه الغلالات الشفيفة ، ونرى هذه الأكتاف ، والأذرع ، والنحور والأثداء التي يوشك أن تكون عارية ... ان النساء ، خاصة أولئك اللواتي نشأن في مدرسة الرجال ، يعرفن حق المعرفة أن الأحاديث التي تدور على موضوعات رفيعة ليست الا أحاديث ، أما الرجل فهو في حاجة الى اللحم والى كل مايظهر هذا اللحم في صورته الخادعة الفاتنة . وهذا بعينه هو ما يقع . ويكفي أن ننبذ هذا الرجس الذي أصبح لناطبيعة ثانية وان ننظر الى المجتمع الراقي كما هو في كل عهره ، حتى نرى أنه بيت من بيوت الدعارة حقا . ألا توافقني على هذا الرأي ؟

طرح هذا السؤال ثم قاطعني قائلا :

ـ اسمح لي أن أبرهن لك على صدق هذا الرأي • أنت تقول ان للنساء في بيتنا اهدافا غير أهداف النساء اللواتي في بيوت الدعارة • وأنا أقول لا ، وسأبرهن لك عن صحة دعواي • اذا اختلف الافراد بسببهدفهم ووجودهم وحياتهم الداخلية ، فان هذا الاختلاف لابد أن يؤثر في مظهرهم الخارجي • فانظر اذن الى هاته النسوة الشقيات المحتقرات وأنظر من جهة ثانية الىنساءأرقىطبقات المجتمع : ألاترى أثوابا واحدة،وأزياء واحدة ،وعطورا واحدة ، وعريا واحدا في الأكتاف والنحور والأثداء ، وبروزا واحدا في الاليتين يلفهما الثوب اللاحق بالجسم ، وميلا واحدا الى الحصى الصغيرة ، والأشياء الثمينة البراقة ، وحبا واحدا لتسليات بعينها كالرقص والموسيقى والغناء •

ان الأوليات يجتذبن الرجال بكل الوسائل ، كالأخريات سواء بسواء • لا فرق بين الطائفتين • حتى لنستطيع أن نقول اذا شئنا الصراحة في الكلام اننا نحتقر من هن مومسات الى حين قصير، ونحترم من هن مومسات الى حين طويل •

٧

ـ نعم لقد سقطت اذن أمام فتنة أثواب الحرير وضفائر الشعر • ولم يكن هذا بالأمر الصعب ، لأنني نشأت في ظروف سهل تفتح الغرام ، كما تسهل بيوت الزجاج تفتح النباتات • ان زيادة في الغذاء الذي يشيع الحرارة في الجسم ، وكذلك العطالة الجسمية التامة التي نعيش فيها ، كل ذلك لم يكن الا اثارة دائمة للجسد قد يدهشك هذا الكلام ، ولكنه يعبر عن الواقع •

لقد ظللت أجهل أنا نفسي هذا الواقع حتى الأوقات الأخيرة أما الآن فانني أراه رؤية واضحة • ومن اجل ذلك انما يؤلمني أن أرى انسانا لا يعرف هذا الواقع ، وأن يعرف الناس بسخافات كسخافات تلك السيدة التي كانت تتحدث هنا منذ قليل •

« في الربيع كان عدد من الفلاحين يعملون في تسوية حصى السكة الحديد قرب مزدعتي • ان الطعام الذي يتناوله فلاح من الفلاحين عادة هو الخبز والبصل • والفلاح يعيش بهذا الطعام قوي الجسم صحيح العافية ، ويقوم بعمله في الحقول • فاذا اشتغل في أعمال السكة الحديد كان طعامه اليومي نصف كيلو من اللحم وجريش القمح • ولكنه ينفق هذا المقدار من الطعام في عمله ست عشرة ساعة من اليوم محركا عجلة وزنها ثلاثون كيلو • هـذا طبيعي • أما نحن الذين يبتلع أحدنا كيلو من اللحم وشيئا من الطير والسمك وأطباقا أخرى ساخنة ومقادير كبيرة من الشراب ، فكيف ننفق هذا الطعام كله ؟ انا ننفقه افراطا في ملذات الحس • وسعيد ذلك الذي فتح له صمام الأمان هذا • أما من أوصد له ، كما فعلت أنا خلال فترة من الوقت ، فسرعان ما تنشأ عنده تلك الحماسة التي اذا مرت أشعتها في موشور حياتنا المصطنعة ، صارت الى غرام من أطهر الغرام • غرام أفلاطوني في بعض الأحيان • لقد أصبحت عاشقا كما يصبح كثير من الناس عشاقا • ونجح كل شيء : النشوة والحنان والشعر • والحق أن هذا الفسق لم يكن الا ثمرة شيئين : نشاط الأم والخياطات من جهة ، وفراغ الحياة وكثرة الطعام من جهة أخرى • فلولا تلك النزهة في القارب ، ولولا الخياطة ، أي لو بقيت زوجتي في المنزل مرتدية مبذلا بشعا ، ولو كنت من جهتي أعيش في ظروف سوية ، أي لو كنت لا أتناول من الطعام الا ما أنا في حاجة اليه للعمل ، ولو كان صمام الامان عندي مفتوحا لا موصدا عرضا ، لما عشقت ، ولما وقع شيء مما وقع •

٨

ولكن كل شيء حدث في آن واحد : خالتي أنا ، والثوب الجميل ، والنزهة في القارب • لقد أمكن الافلات من هذا عشرين مرة • وكان لا بد أن يقع ذلك المساء • انه أشبه بفخ • لست أمزح • ان الزواج يدبر الآن كما يدبر فخ • هذا طبيعي أليس كذلك ؟ ان الفتاة تصبح ناضجة للزواج ، فلا بد من تأمين الاستقرار لها • ومن السهل تأمين زواج للفتاة حين لا تكون دميمة وحين يكون هنالك رجال راغبون في الزواج ! كان يحدث هذا حتى في الزمان القديم • فمتى بلغت الفتاة سن الزواج دبر أهلها تزويجها • والانسانية كلها ما تزال تفعل هذا الى الآن : الصينيون والهنود والمسلمون والشعب في بلادنا • ا ن تسعة وتسعين في المائة على الاقل ، من أفراد النوع الانسانية ينهجون هذا النهج • وليس ثمة الا واحدا في المائة ، ان لم يكن أقل من ذلك ، وجد أن هذا أمر سيء فابتدع شيئا جديدا ، وهذا الواحد هو معشر الفاسقين • ولكن ما هو الجديد الذي ابتدعناه ؟ أن تنتظر الفتيات ، بينما يطوف الرجال بينهن ويختارون منهن كأنهم في سوق • انهن ينتظرن وكأن الواحدة منهن تقول : « أنا أنا يا عم ! أنظر الى كتفي والى غير كتفي •• اني خيرهن جميعا • » ولكنهن لا يجرؤن على أن يقلن هذا صراحة • أما نحن الرجال ، فيقول واحدنا لنفسه مسرورا كل السرور : « لن يغرر بي ، لن أقع في الفخ • » انه يتجول وينظر ، ويسره أن يرى كل شيء قد نظم من أجله • فاذا لم يحتط للأمر ولم يحاذر وقع في الفخ •

قلت له :

ـ ولكن ما الذي يجب أن يعمل • هل على المرأة نفسها أن تطلب من الرجل أن يتزوجها ؟

ـ لا أعرف حلا ، ولكن اذا كان الأمر أمر مساواة ، فيجب أن تكون هذه المساواة واقعية • اذا كنت ترى أن السعي الى الزواج يحط من القدر ، فان الحالة الراهنة تحط من القدر أكثر من ذلك ألف مرة • ان الحقوق والفرص تتساوى في السعي الى الزواج ، أما هنا فالمرأة رقيق في سوق أو طعم في فخ • لو قلت لأي أم أو لأي فتاة أن همها الوحيد هو اجتذاب خطيب ، لعدت ذلك منك اهانة ما بعدها اهانة • ومع ذلك فالأم والفتاة لاتفكران الا في هذا ، ولا يشغل بالهما الا هذا • ان أفظع شيء هو أن جميع الفتيات تطارد الرجل هذه المطاردة لاصطياده • وليت هذه المطاردة تتم صريحة سافرة ••• لا لا ، ان ذلك كله ليس الا كذبا ورياء ••

« آه ما أجمل نظرية دارون ! ان ليلى تهتم كثيرا بالتصوير ! هل تأتي الى معرض الرسم ! انه مفيد جدا ! ثم النزهات في الترويكا، وشهود المسرحيات ، وسماع السمفونيات ! ان ليلى مجنونة بالموسيقى• لماذا لا تشارك في هذا الاداء ؟ ثم النزهات في القارب ! ووراء هذا كله تكمن فكرة واحدة : تزوجني ، تزوج بنتي ليلى ! جرب قليلا • »

قال ذلك كله ثم أضاف : آه من الكذب !

وبعد أن شرب آخر قدحين من الشاي ، أخذ يرتب الفناجين والآنية •

ثم بدأ يقول وهو يرتب الشاي والسكر في كيسه :

ـ انك لتعلم ان ما يشكو منه جميع الناس من سيطرة النساء تلك انما مرده الى هذا •

٩

قلت :

ـ أي سيطرة تعني ؟ ان القوانين في جانب الرجال ..

فقاطعني يقول :

ـ نعم ، نعم ، هذا صحيح . وما ذكرته لك منذ هنيهة يفسر هذه الواقعة العجيبة ، وهي أن النساء مذلة الى أبعد حدودالاذلال من جهة ، وأنما هي التي تحكم وتسود من جهة اخرى . مثلهن في ذلك مثل اليهود ، فكما يثأر اليهود بسيطرة المال مما يعانون من ذل ومهانة ، كذلك تفعل النساء . يقول اليهود : ها ... انكم تريدون أن لا نكون الا تجارا .. . فا علموا اذن أننا معشر التجـــار نملك زمامكم ونسيطر عليكم . وتقول النساء : ها .. انكم تريدون أن لا نكون الا متاعا ولذة ... فلسوف نستعبدكم اذن بهذا نفسه .. ليس حرمان المرأة من الحقوق أنها لاتستطيع أن تقترع في الانتخاب، ولا أن تكون قاضيا من القضاة ـ ان الاهتمام بهـــذه الشئون ليس حقوقا ـ وانما حرمان المرأة من الحقوق أنها لاتستطيع أن تكون مساوية للرجل في العلاقات الجنسية ، أنها لا تملك حق اختيار الرجل أو الامتناع عنه ، بدلا من أن يختارها الرجل . فان قلت ان هذا عار قلت ان الرجل لايجب كذلك أن يتمتع بهذه الميزات . ان المرأة محرومة الان من هذا الحق الذي هووقفعلى الرجل .فلكي تعوض عن هذا الحق ، تؤثر في شهوة الرجل ، وتخضعه لنفسها اخضاعا تاما فما يكون له من الاختيار الا ظاهره ، وانما يكون الاختيار لها في حقيقة الأمر . ومتى ملكت المرأة هذا المخرج أسرفت في

اللجوء اليه والاعتماد عليه ، وكان لها على الرجال سلطان رهيب • »
قلت :
ـ أين ترى هذا السلطان ؟
ـ أين أرى هذا السلطان ؟ في كل شيء ، في كل أمر • طف على المخازن في مدينة كبيرة • ان هناك ملايين المخازن ، لا تستطيع ان تقدر ما أنفق من جهد وعمل ، فهل ترى في تسعين من مائة منها شيئا مما يستعمله الرجل ؟ ان جميع ترف الحياة مزودة للنساء ، مؤمن لهن • عد المصانع ! ان جزءا كبيرا منها ينتج أشياء لا فائدة فيها : مركبات للنساء ، أثاثا للنساء ، أدوات زينة للنساء • ان ملايين الرجال ان أجيالا من العبيد تفنى في المصانع فناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، لا لشيء الا ارضاء نزوات المرأة • أن عشر النوع الانساني تستعبده النساء ، كما تستعبد الملكات العبيد ، وتفرض عليه العمل المرهق المضني • كل ذلك لأننا قد أذللناهن ،اذ حرمناهن من الحقوق التي يملكها الرجل ، فاذا هن ينتقمن لانفسهن بالتأثير في شهوتنا لاجتذابنا اليهن • نعم ، هذا مصدر كل شيء •

« لقد بلغت النساء من اتخاذ أنفسهن أداة اغراء وتحريض للشهوة أن الرجل لا يستطيع أن يعاملهن رابط الجأش هادئا،فمتى اقترب الرجل من امرأة ، افتتن بها وطاش صوابه • كان يشق علي أن أرى امرأة في ثوب حفلة راقصة ، أما الآن فأصبح ذلك يخيفني، وأصبحت أراه شيئا خطرا ، شيئا مخالفا للقانون ، حتى ليخطر ببالي أن أستنجد برجل من رجال الشرطة ليحميني من هذا الخطر ،ليزيل هذا الخطر عني • لماذا تضحك (قال ذلك صارخا) ،انني لا أمزح• وأنا على يقين من أن الرجال سيدركون هذا في يوم من الايام ، وربما في يوم قريب ، فيدهشون عندئذ من وجود مجتمع كهـــذا المجتمع الذي يسمح بمثل هذه المخالفات التي ترتكب في حق الراحة

العامة ، أعني هذه الاثارة المباشرة للشهوة عن طريق تزيين النساء أجسادهن • ان ذلك يشبه نصب الفخاخ في طريق الناس أثناء النزهات ، بل هو أسوأ من ذلك ! لماذا تمنع الحكومة المقامرة ، ولا تردع النساء اللواتي يثير تبرجهن الشهوة ؟ انهن أخطر من المقامرة ألف مرة ! »

١٠

« نعم ، بهذه الطريقة أوقعت في الفخ • لقد أصبحت عاشقا • لم أتصورها ذروة الكمال فحسب ، بل تصورت نفسي كذلك أيضا طوال فترة الخطوبة • فما من وبش من الأوباش الا ويستطيع اذا أحسن البحث والتقصي أن يجد أوباشا آخرين يفوقونه حقارة من ناحية من النواحي ، فيشعر من ذلك بشيء من الكبرياء والاعتزاز ، ويرضى عن نفسه • ذلك ما حدث لي أنا : ان زواجي لم يكن قائما على حب المال ، كزواج كثير من معارفي الذين تزوجوا طمعا في مال أو طمعا في علاقات اجتماعية عالية ، فأنا غني وهي فقيرة • هذا عامل من العوامل التي جعلتني أزهو بنفسي وأرضى عنها • وأما العامل الثاني فهو أن الآخرين كانوا يتزوجون وهم ينوون أن يستمروا بعد الزواج على أن تكون لهم صلات بنساء أخريات ، أما أنا فكنت أنوي أن أقف نفسي على زوجتي لا أخونها ، ولا أفكر في غيرها • وكان هذا يجعل زهدي عظيما لاحدود له • نعم ، لقد كنت خنزيرا بليغا ، وكنت أظن نفسي ملاكا •

« ولم تطل فترة الخطوبة • انني لا أستطيع أن أتذكر الآن فترة الخطوبة تلك دون أن أشعر بالخجل والعار • يا للدناءة ! اننا نعني بكلمة الحب حبا روحيا لا شهوانيا • والعلاقة الروحية ينبغي

أن تعبر عن نفسها بكلام وحديث • ولكن لاشيء من هذا هنـــا البتة • كان يصعب علينا ، حين نخلو أن نتحدث • كان الحديث عملا يشبه عندنا عمل سيزيف • كنا نخترع شيئا نقوله ، فاذا قلناه عدنا الى الصمت لنخترع شيئا آخر ، وهكذا دواليك • لم يكن ثمة موضوع نتحدث فيه • كل ما كان علينا أن نقوله عن تنظيم حياتنا الآتية ، وعن مشاريعنا للمستقبل ، قلناه بسرعة • ثم ماذا ؟ لو كنا حيوانات ، لعرفنا أنه ليس علينا أن نتكلم • ولكننا لسنا حيوانات ، فكان يجب أن نتكلم ، وليس هناك ما نتكلم فيه ، لاننا كنا مشغولين بأشياء أخرى غير التي يمكن أن يعبر عنها بأحاديث • أضف الى ذلك تلك العادة الفظيعة ، عادة تقديم السكاكر • انها الشراهة مبتذلة• وانظر الى جميع تلك الأمور التي تهيىء للزواج : اننا لانتحدث الا عن البيت ، وحجرة النوم ، والأسرة ، وغلالات النوم ، وأثواب البيت وقمصان الزينة • ذلك اننا لو تزوجنا على طريقة دوموسترى ـ كما قال ذلك العجوز ـ لما كانت الرياش ، والبائنة ، والسرير الا تفصيلات ثانوية • ولكن اذا كان تسعة عـلى الاقل من عشرة متزوجيـن لا يؤمنون عندنا حتى بالقربان المقدس وانما يفعلون مايفعلونه انصياعا لواجب ، ولا تكاد تجد واحدا من مائة منهم لم يتزوج قبل الزواج ، ولا واحدا من خمسين منهم غير مستعد لخيانة زوجته متى سنحت الفرصة ، اذا كان معظم الناس لايعدون الذهاب الى الكنيسة الا الشرط اللازم لامتلاك امرأة معينة ••• فانظر اذن أي معنى فظيع يمكن أن يكون لجميع تلك التفصيلات ! ان ذلك كله يدل على أننا بصدد شيء يشبه أن يكون صفقة بيع • انهم يبيعون فتاة بريئة لرجل فاسق ، ويحيطون هذا البيع ببعض الشكليات ••»

ـ جميع الناس يتزوجون على هذا النحو • وتزوجت أنا على هذا النحو ، وبدأ شهر العسل الذي يطرونه اشد الاطراء • يالها من تسمية فاحشة !

١١

بهذا زفر زفرة سيئة • ثم أضا فيقول :

« كنت ذات مرة بباريز ، فقرأت اعلانا يتحدث عن امرأة ذات لحية وعن كلب مائي ، فذهبت لأرى المرأة ذات اللحية والكلب المائي ، فلم أر الا رجلا يرتدي ثوبا نسائيا خليعا ، والا كلبا ألبس جلد حيوان بحري وأخذ يسبح في مسبح •

« كان ذلك كله شيئا تافها ، ولكن الدليل صحبني عند الخروج متأدبا متلطفا ، فقال للجمهور مشيرا الي : « اسألوا هذا السيد ، ألا ستحق الذي رآه أن يرى ؟ أدخلوا ، أدخلوا أيها السادة ، فرتك واحد » • فاستحييت أن أعترف بأن ما رأيته لا يستحق أن يرى ، وكان صاحبنا يعتمد على عاطفة الحياء هذه • لعل هذا يصدق أيضا على أولئك الذين ذاقوا بشاعة شهر العسل ، ولكنهم لا يرون أن يبددوا أوهام الآخرين • أنا أيضا لم أشأ أن أبدد أوهام أحد • ولكنني لا أرى الآن لماذا يجب أن لا أقول الحقيقة ! أنني لأشعر الآن أن من واجبي أن أعلن هذه الحقيقة ! لقد أحسست بما يشبه احساسي حين تعلمت التدخين : حين تعلمت التدخين كنت أحس برغبة في التقيؤ والبصاق ، ولكنني كنت أبلع لعابي متظاهرا بأن التدخين لذيذ جدا • ان اللذة التي يشعر بها المرء حين يدخن تأتي فيما بعد ، اذا كان لا بد أن تأتي يوما : وكذلك اللذة في الحالة التي كنت فيها : ان على الزوج أن يعود زوجته على هذه العادة السيئة ، كي يستمتع بها • »

قلت :

ـ كيف تسمي ذلك عادة سيئة ؟ انك تتحدث عن شيء طبيعي من مميزات الكائن الانساني !

فأجاب بقوله :

ـ طبيعي ؟ اعلم أنني على يقين من أن هذا الشيء غير طبيعي البتة . اسأل عنه الاطفال ، او اسأل عنه فتاة طاهرة ! لقد تزوجت أختي في سن صغيرة جدا من رجل فاسق عمره ضعف عمرها . انني ما أزال أذكر الدهشة التي أصابتنا حين جاءت الينا ليلة الزواج هاربة من مخدع العرس،شاحبة الوجه، غارقة في الدموع، مرتجفة من أخمص القدمين الى قمة الرأس ، قائلة انها لا تستطيع على أية حال من الأحوال حتى أن تحكي لنا ما كان يريد بها . أبعد هذا تقول ان ذلك شيء طبيعي ؟ طبيعي أن يأكل المرء .فالاكل لذيذ . سهل ، ممتع من البداية الى النهاية ، وليس فيه مايخجل ، أما هنا فكل شيء فاحش مخجل مؤلم . لا ، لا ، ليس ذلك بالشيء الطبيعي! لقد أيقنت بأن الفتاة الطاهرة تكره دائما هذا الامر .

قلت :

ـ وكيف يمكن ان يستمر النوع الانساني بدونه ؟

فقال بلهجة خبيثة ساخرة وبنية سيئة سافرة ، كأنه كان ينتظر هذا الجواب المعروف :

ـ ها .. نعم .. ضياع النوع الانساني ! حين تنصح بالامتناع عن انجاب الأطفال يستطيع اللوردات الانجليز أن ينتفخوا طعاما ، فذلك ممكن ، وحين تنصح بذلك الشيء نفسه زيادة للذة فهذا ممكن أيضا ، ولكن حاول أن تنصح بذلك الامتناع باسم الأخلاق تنهمر عليك الاحتجاجات من كل حدب وصوب !... كأن النوع الانساني يمكن أن ينقطع عن الوجود متى أبى عشرة رجال أو عشرون رجلا

أن يكونوا خنازير • أستميحك العذر مع ان هـذا النور يزعجني ، فهل أستطيع أن أطفئه ؟

قال هذا وهو يشير الى المصباح • فأجبته بأنني يستوي عندي أن يبقى النور مشتعلا أو يطفأ ، فهب واقفا على المقعد بسرعة ، على عادته ، وأسدل ستارة الصوف على المصباح •

قلت :

ـ مع ذلك ، لو أن جميع الناس اتخذوا من هذا قانونا ، لما بقي النوع الانساني •

فلم يجب فورا ، ولكنه قال وهو يجلس أمامي وجها الى وجه ، ويباعد ما بين ساقيه ، ويسند كوعيه الى ركبتيه :

ـ تسألني كيف يستمر النوع الانساني • ولكن لماذا يجب أن يستمر النوع الانساني على البقاء ؟

ـ لماذا ؟ لأننا بدون ذلك لا يمكن ان نوجد !

ـ فلماذا يجب أن نوجد ؟

ـ لماذا يجب أن نوجد ؟ لكي نعيش !

ـ ما هو هدف الحياة ؟ اذا لم يكن ثمة هدف ، واذا كنا لا نعيش الا لنعيش ، فلا داعي الى الوجود • واذا كان الأمر كذلك ، فان شوبنهاور ، وهارتمن ، وحتى البوذيين ، على حق • أما اذا كان للحياة هدف ، فواضح عندئذ أن الحياة يجب أن تنقطع عن الاستمرار متى تحقق ذلك الهدف • هذه هي النتيجة الوحيدة الممكنة •

قال ذلك مضطربا ، وكان واضحا أنه يحرص على هذه الفكرة أشد الحرص • وأردف يكرر قوله :

ـ نعم ، هذه هي النتيجة الوحيدة الممكنة • لاحظ أن هـدف الانسانية ـ الحسنات ، أو الخير ، أو الحب ، أو ما شئت فسمه ـ اذا كان الهدف الذي يتحدث عنه الانبياء : أي أن يجتمع البشـر

جميعا على الحب وأن يصنعوا من رماحهم مناجل ، فما الذي يحول دون تحقق هذا الهدف ؟ انها الأهواء ؟

« ولا شك ان الحب الجنسي الجسدي أقوى هذه الأهـــواء وأسوأها وأعندها وأشرسها ، فاذا زالت هذه الأهواء يوما ، وزال معها ذلك الهوى الاخير ، فان النبوءة يمكن عندئذ أن تتحقق ،فيلتقي الناس على المحبة ، وتبلغ الانسانية هدفها ، فلا يبقى ما يدعو الى استمرار الحياة • اما ما ظلت الانسانية حية ، فان لها مثـــلا أعلى تصبو اليه ، وطبيعي أن هذا المثل الأعلى الذي تصبو اليه الانسانية لن يكون المثل الأعلى الذي تهدف اليه الأرانب ، ولا الخنازير ، وهو أن تتكاثر بأقصى سرعة ممكنة ، لا ولن يكون المثل الأعلى الذي يتطلع اليه القردة أو الباريزيون الذين يريدون أن يستخرجوا من هوى الجسد كل ما يستطيعون أن يستخرجوا منه من تفنن ، وانما سيكون المثل الأعلى الخلقي الذي يتحقق بالعفة والطهارة • ولقـد جنح البشر الى هذا المثل الأعلى دائما • فانظر ماذا ينتج عن ذلك :

« ينتج عن ذلك أن الحب الجسدي يصبح صمام الأمان • اذا لم يبلغ الجيل الراهن هدفه ، فذلك يرجع الى أهوائه وحدها ، والحب الجسدي أقوى هذه الأهواء • واذا وجد الهوى الجسدي ، وجد جيل جديد ، ووجد احتمال بلوغ الهدف في الجيل التالي • فاذا لم يبلغ هذا الجيل الهدف ، جاء دور الجيل الذي يليه ، وهكذا دواليك ، الى ان يتحقق الهدف وتصدق النبوءة ، أي الى ان يلتقي الناس • فاذا لم يكن الأمر كذلك ، فما الذي يحدث ؟

« اذا سلمنا بأن الله خلق البشر لبلوغ هدف ما ، فلقد كان عليه اما أن يجعلهم فانين بلا هوى جسدي واما أن يجعلهم خالدين • فما الذي يمكن أن يحدث في الحالة الاولى ؟ الذي يمكن أن يحدث في الحالة الاولى أن البشر يعيشون ويموتون دون أن يبلغوا الهدف،

ويكون الله مضطرا عندئذ الى أن يخلق أناسا آخرين • أما اذاجعلهم خالدين ، وسلمنا (رغم أن من الاصعب على بشر بأنفسهم وعلى أجيال جديدة أن تصلح من شأنها وأن تقترب من الكمال) بأنهم سيبلغون الهدف بعد عدة آلاف من السنين ، فان من حقنا أن نتساءل: فما الداعي الى وجودهم عندئذ ؟ وأين نذهب بهم في مثل هذه الحالة؟ ألا ان الوضع الراهن لأفضل • لعل هذه الصورة من التعبير لا ترضيك ، ولعلك من القائلين بمذهب التطور • ولكن الأمر عندئذ لا يختلف • فان النوع الانساني ، وهو أرقى أنواع الحيوان ، يجب عليه ، من أجل أن يبقى في صراعه مع الحيوانات الاخرى ، أن يتجمع تجمع خلية النحل ، بدلا من أن يتكاثر الى غير نهاية : يجب عليه ، كالنحل ، أن ينشيء أفرادا لاجنس لهم ، أي أن يحاول العفة ، بدلا من أن يثير الجسد هذه الاثارة التي يتجه اليها نظام حياتنا كله » •

قال ذلك وسكت • ثم أضاف يقول :

« سيزول النوع الانساني • هل في الدنيا كلها انسان يشك في هذا ، مهما يكن رأيه • ان هذا أمر لاريب فيه ، كالموت سواء بسواء • جميع التعاليم الدينية ، وجميع الدراسات العلمية تؤكد ان ذلك أمر لا مناص منه • فلماذا يدهشنا أن تؤدي الأخلاق الى هذه النتيجة نفسها ؟ »

قال ذلك ، ثم صمت مدة طويلة • أنهى تدخين سيجارته ، ثم سحب من كيسه سجائر أخرى ، ورتبها في علبته القديمة القذرة • قلت :

— انني أفهم رأيك ، والشيكرز يقولون هذا القول نفسه •

— نعم ، نعم ، انهم على حق ، هم ايضا • ان الهوى الجسدي شر في جميع الاحوال • انه شر رهيب يجب أن نحاربه ، بدلا من أن

نحميه ، كما نفعل في بلادنا . ان كلمات الانجيل التي تقول بأن كل من نظر الى امرأة لاغرائها فقد زنا بها ، لاتصدق على زوجات الآخرين وحدهن ، بل تصدق على زوجاتنا أيضا . »

١٣

ـ أما في بيتنا فالأمر ينقض ذلك . ان من لايزال يرى وهو عازب ، أن عليه أن يعف ، يرى متى تزوج أن العفة لم تعد لازمة . ان سفر العروسين بعد الزفاف ، وما يؤمنانه لنفسيهما من عزلة بموافقة الأهل ، ليس الا اذنا بالفسق . ولكن القانون الاخلاقي الذي يخترق ما يلبث أن ينتقم لنفسه بنفسه . لقد أخفقت المحاولات التي قمت بها لتنظيم شهر العسل . كنت أشعر طوال الوقت بالعار والملل . وما لبث ذلك أن أصبح ألما حادا . ولقد بدأ كل شيء بسرعة . يخيل الي أنني في اليوم الثالث أو الرابع ، رأيت زوجتي حزينة ، فسألتها عن سبب حزنها ، وقبلتها ، ظانا أن هذا هو كل ما كان يمكن أن ترغب فيه ، ولكنها أبعدت يدي وأخذت تبكي . لماذا ؟ لم تكن تستطيع أن تقول لماذا . ولكنها كانت تشعر بأنها حزينة متألمة . لعل أعصابها المجهدة قدأسرت اليها بالحقيقة عن دناءة علاقاتنا . وكانت عاجزة عن التعبير عن ذلك . وسألتها فقالت انها في حنين الى أمها . وبدا لي أن ذلك كذب . وحاولت أن أواسيها دون أن آتي على ذكر أمها . لم أفهم أن كل ما بها هو أن قلبها مثقل ، وأن الأم ليست الا ذريعة . ولكنها لم تلبث أن غضبت لأنني لم أشأ أن أحدثها عن أمها ، كأنني لم أصدقها . وقالت انها ترى أنني لا أحبها .

« فأخذت عليها أنها ذات نزوات ، فاذا بوجهها يتبدل تبدلا

كاملا على حين فجأة . لقد حل الحنق محل الحـزن ، واتهمتني بالأنانية والقسوة ، وصبت علي أسوأ الكلمات . نظرت اليها . ان وجهها كله يعبر عن الفتور ، والعداوة ، ويكاد يعبر عن البغض . كيـف ؟ مـاذا ؟ أين الحب ؟ أين التقـاء الروحين أهـذا هو ؟ قلت لنفسي : لا ، لا ، ذلك مستحيل ! انها ليست هي ! وحاولت أن أرقق قلبها، ولكنني اصطدمت بحاجز من العدواة الباردة المسمومة، لا يمكن التغلب عليه ، فلم أفيء الى صوابي ، وغضبت أنا أيضا ، وتبادلنا كلاما سيئا كثيرا . وترك هذا الشجار الاول في نفسي أثرا وانني لأسميه الآن شجارا ، وما هو في الحقيقة كذلك ، وانما اكتشاف الهوة التي تفصل أحدنا عن الآخر . لقد استنفذت اللذة الجنسية حبنا ، فاذا العلاقات التي بيننا تتعرى : ما نحن الا شخصان غريبان يقف أحدهما أمام الآخر يريد أن يتلقى منه أكبر مقدار من اللذة .

« لقد أسميت ما وقع بيننا شجارا ، وما هو في حقيقة الامـر بالشجار ، وانما هو نتيجة التوقف الموقت في علاقاتنا الجنسية . ولم أفهم أن هذا الفتور وهذه العدواة سرعان ما اختفت أمام هبة جديدة من هبات الشهوة . فاعتقدت أننا تشاجرنا ثم تصالحنا ، وأن ذلك لن يعود . ولكن في أثناء ذلك الشهر الاول نفسه ، حدثت ،بسرعة شديدة ، فترة جديدة من الشبع فأصبح كل منا لا يفيد الآخـر فنشأ عن ذلك شجار جديد ، وقد أدهشني هذا الشجار الجديد أكثر مما أدهشني الشجار الاول . قلت لنفسي : اذن لم تكن الحادثة الاولى مصادفة من المصادفات ، وانما كانت أمرا لابد أن يقع ،ولابد أن تتكرر اذن هذه الحادثة . وقد زاد دهشتي في الشجار الثاني أنه انطلق بسبب تافه كل التفاهة ، هو لوم على أمر يتصل بالمال الذي لم يكن من عادتي أن أضن به ، وخاصة على زوجتي . ولكنني أتذكر الآن أنها ادارت الامر على وجه جعل ملاحظة من ملاحظاتي تبـدو

تعبيرا عن رغبتي في السيطرة عليها بالمال ، فقالت انني أقيم على المال ما أستأثر به من حقوق عليها . ان ذلك مستحيل ، انه غباء ، انه حقارة . انه ليس أمرا طبيعيا لا بالنسبة الي ولابالنسبة اليها. فغضبت ولمتها على هذه الخشونة ، فردت علي ، واستؤنف كل شيء . ورأيت في كلماتها ، وفي تعبير وجهها وعينيها ، نفس العدواة القاسية الباردة التي فاجأتني في المرة الاولى . أتذكر انني تشاجرت مع أخي ، ومع رفاقي ، ومع أبي ، ولكنني لا أعرف أن شيئا من الشراسة المسمومة الخاصة قد ظهر يوما في مناقشاتي مع هؤلاء . وانقضى وقت ، فحلت حالة الحب والشهوة محل هذا البغض المتبادل، وواسيت نفسي قائلا : ان هذين الشجارين ليسا الا خطأ يمكن اصلاحه . ولكن الشجار الثالث وقع ، ثم وقع الشجار الرابع ، فأدركت أن الامر ليس مصادفة ، وأنه لابد أن يقع ، وأنه سيتكرر دائما . وذعرت من تصور ما ينتظرني . ومما زاد عذابي أن فكرة رهيبة سيطرت على ذهني ، وهي أني الانسان الوحيد الذي يعيش مع زوجته حياة سيئة هذا السوء كله ، وأن حياتي الزوجية لاتتفق مع ما كنت أتوقعه منها في حين أن هذا لايقع للأسر الأخرى . كنت لا أعرف حتى ذلك الوقت أن هذا شأن جميع الناس ، وأن جميع الناس يتخيلون مثلي أنهم منفردون بهذا الشقاء ، ان جميع الناس يخفون هذا الشقاء الخاص المخزي لا عن غيرهم فحسب ، بل عن أنفسهم أيضا ، ولا يجرؤون أن يعترفوا به .

« بدأ ذلك منذ الايام الاولى ، واستمر طوال الوقت ، وكان يزداد قوة وقسوة شيئا بعد شيء . ولقد شعرت ، في قرارة نفسي منذ الأسبوع الاول انني ضعت ، وأنه قد وقع ما لم أكن انتظره ، وان الزواج ليس شقاء فحسب بل هو أمر أشقى من الشقاء . ومع ذلك لم أشأ أن أعترف بهذا لنفسي ، شأني في ذلك شأن سائر

الناس (وما كنت لاعترف بهذا لنفسي الآن لولا ان الامر قد انتهى) • واني لاستغرب اليوم كيف لم ادرك حقيقة وضعي حينذاك • وكان يمكن أن أدرك ذلك ، أن تلك المشاجرات كانت تقوم لاسباب يستحيل على المرء أن يتذكرها بعد انتهاء المشاجرة • كان العقل لا يتيح لاحد منا أن يعرف أسبابا كافية لمابينه وبين صاحبه من عداوة دائمة • وأغرب من ذلك أن الاسباب التي كانت تدفعنا الى المصالحة غير كافية أيضا • كانت هذه الاسباب في بعض الاحيان كلاما أو تعليلا أو دموعا •• ولكنها كانت في احيان أخرى •• آه • • علي أن أتذكر هذا الامر • نعم كانت الأسباب التي تدعونا الى التصالح في أحيان أخرى ، بعد الكلام القاسي المر الذي نتبادله •• نظرات وابتسامات وقبلات وعناقا صامتا ••• فجأة •• ثم الامر الشنيع على حين فجأة ؟ كيف يمكنني أن لا أرى حقارة ذلك كله ! ••

١٣

دخل مسافران واخذا يستقران على مقعد بعيد • فصمت الرجل أثناء ذلك ولكنه ما ان أصبح صوتهما لا يسمع ، حتى استأنف حديثه دون أن يقطع تسلسله :

ـ ذلك أن أبشع ما يدعو الى القرف في هذا الامر إننا نعد الحب من الناحية النظرية شيئا مثاليا ساميا ، مع أنه من الناحية العملية قذارة يشمئز الانسان من أن يتذكرها ويخجل من أن يتذكرها • واذا كان الحب شيئا يبعث على الاشمئزاز والخجل ، فيجب أن يفهم على هذا النحو ، ولكن الناس يتظاهرون بأنهم يجدونه أمرا جميلا جليلا •

« ماذا كانت أولى علامات حبي ؟ كانت أولى علامات حبي أنني استسلمت للاندفاعات الحيوانية •

المفرطة ، لا بغير حياء فحسب ، بل ايضا مع الاعتزاز بامكان اقتراني لهذه الاندفاعات الحيوانية المفرطة ، دون ان أفكر أي تفكير لا في الحياة الروحية لزوجتي ولا في حياتها الجسدية • وكنت استغرب ما كنا نشعر به من حنق متبادل ، رغم أنه كان شيئا واضحا : فماهو في الواقع الا احتجاج الطبيعة الانسانية على الحيوان الذي يخنقها • كنت استغرب ما بيننا من بغض • ولكن هذا البغض كان في حقيقة الامر شيئا لا مناص منه • فما هو الا البغض الذي يتبادله شريكا جريمة ، بسبب الحض عليها والاسهام فيها • ألم تكن جريمة أن المسكينة اصبحت حبلى منذ الشهر الاول ، واستمرت علاقتنا الحيوانية اثناء ذلك ؟

« انك تظن انني أبتعد عن قصتي ! الحق أنني لا ابتعد عنها أبدا • انني أروي لك كيف قتلت زوجتي • ولقد سئلت في المحكمة عن السلاح الذي قتلتها به ! ألا ما أغباهم ! انهم يظنون انني قتلتها بسكين في اليوم الخامس من شهر تشرين الثاني (اكتوبر)• والواقع انني لم ارتكب جريمتي في ذلك اليوم ، وانما ارتكبتها قبل ذلك بكثير ، تماما كما يعرفون هم جميعا جرائم القتل الان ، جميعا ، جميعا •••

ـ كيف قتلتها اذن ؟

ـ من الغريب أن أحدا لايريد ان يعرف هذا الامر الواضح الجلي الذي يجب أن يعرفه الأطباء وأن يذيعوه ، ولكنهم يسكتون عنه • انه أمر بسيط الى ابعد حدود البساطة • لقد خلق الرجل والمرأة كما خلقت الحيوانات ، فبعد العلاقة الجنسية يأتي الحمل ، ثم يأتي الرضاع ، والحمل والرضاع مرحلتان تكون العلاقة الجنسية اثناءهما مؤذية بالمرأة وبالطفل على السواء • وعدد الرجال والنساء واحد • فما الذي يترتب على ذلك ؟ الامر واضح • فليس

يحتاج المرء الى كثير من الحكمة حتى يستخرج من ذلك عـين النتيجة التي تستخرجها الحيوانات ، وهي الامتناع عن الاتصـال الجنسي • لقد توصل العلم الى اكتشاف مكروبات تسمى بالكريات البيض ، وتجري في الدم ، وتوصل الى اكتشاف سخافات أخرى أيضا ، ولكنه لم يفهم ذلك الامر البسيط الواضح ، أو قل على كل حال انني لم اسمع عن هذا ابدا •

« ليس هنالك بالنسبة الى المرأة الا حلان : الاول هو ان تجعل من نفسها انسانا شاذا ، أن تحطم في ذاتها قدرتها على أن تكون امرأة أي أما ، كيما يستطيع الرجل أن يتمتع بهابهدوءواستمرار •والثاني، وهو حل لا يمكننا حتى‌ان نسميه‌حلا ، لانه مجرد خروج‌فظ‌مباشر على قانون الطبيعة ، وهو ما نراه في جميع الاسر التي يزعمون أنها أسر كريمة ، هذا الحل الثاني هو أن تظل المرأة حاملا ومرضعا وخليلة في آن واحد ، على خلاف الطبيعة ، وأن تهبط بذلك الى درك دون درك الحيوانات ومن الممكن عندئذ أن تخونها قواها ، ومن ثم نرى الهستريا والعصاب في بيئتنا ، ونرى النساء الممسوسـات في بيئات الشعب • لاحظ أن الفتيات لايصبن بشيء من هذا ، وانما تصاب به النساء المتزوجات اللواتي يعشن مع أزواجهن • والامر على هذا النحو في أوروبا • ان جميع المستشفيات تفيض بنساء خرجن على قانون الطبيعة • واذا كانت الممسوسات وزبائن شاركو نسـاء مريضات تماما ، فان الدنيا تعج بنساء نصف مريضات • يجب أن نتذكر عظمة الامر الذي يتم في المرأة حين تكون حاملا أو مرضعا • ان ما يتحقق فيها اثناء ذلك هو ما يكفل للانسانية أن تستمر • ونحن نعرقل هذا العمل المقدس ، وبماذا نعرقله ؟ انه لشيء فظيع ان أفكر في هذا الأمر ! ان الناس يتحدثون عن حرية المرأة وعن حقـوق المرأة • ألا ان ذلك أشبه بما يمكن أن يفعله أكلة لحوم البشر

اذا هم علفوا أسراهم ليأكلوهم بعد ذلك، وأكدوا لهم في الوقت نفسه انهم يصونون لهم حقوقهم وحريتهم !

كان هذا الكلام كله جديدا علي ، فدهشت . قلت :

ـ فما العمل والحالة هذه ؟ في رأيك اذن أنه لايجوز للرجل أن يباشر امرأته الا مرة كل سنتين ، في حين أن الرجل ...

ـ لا غنى له عن ذلك ..

«هذا زعم لطيف آخر من مزاعم كهنة العلم هؤلاء . ماعسى يرى هؤلاء الجهابذة من رأي لو ألزمتهم أن ينهضوا بالواجب الذي تنهض به النساء اللواتي هن في رأيهم حاجة لازمة للرجال ! انه ليكفي أن تقول لرجل أن الفودكا والتبغ والأفيون حاجة لازمة له حتى لايستطيع أن يستغني عنهما بعد ذلك .

« ينتج عن هذا أن الله لم يكن يعرف ما يريد حسين خلق العالم ، وانه خلق العالم خلقا سيئا لانه لم يسأل هؤلاء الفقهاء ان يسدوا اليه بالنصح . انك لترى اذن أن الأمر لايسير سيرا حسنا . لقد أفتوا بأن الرجل في حاجة الى ارواء شهوته ، ما من ذلك مفر ، ولكن هذا الارواء تعوقه الولادة ويعوقه الارضاع ، فما العمل ؟ ليس علينا الا أن نسأل الفقهاء في هذا ،فيدبروا الامر أحسن تدبير. وقد دبروه حقا . آه من هؤلاء الفقهاء .. متى ننزلهم اخيرا عن عروشهم ونتخلص من أكاذيبهم ؟ لقد آن الاوان . أنظر الى أين وصلنا منذ الآن : ان المرء يجن أو ينتحر بسبب ذلك . وكيف يكون الامر على غير هذا النحو ؟ لكأن الحيوانات تعرف أن ذريتها تكفل استمرار جنسها ، فهي تلتزم من أجل هذا قانونا . الا الانسان لايعرف ذلك ولايريد أن يعرفه . وانما هو يعني بلذته قبل كل شيء . ومن ذا الذي يفعل هذا ؟ مليك الطبيعة ، الانسان . لاحظ أن الحيوانات لاتتعاشر الا حين تستطيع أن تنجب ، في حين أن ملك

الطبيعة ، هذا الملك الفاسد ، يفعل ذلك بغير انقطاع ، متى وجد فيه لذة • وهو يريد فوق ذلك أن يطلق على هذا العمل الجدير بالقرود اسم الحب • وباسم هذا الحب ـ باسم هذه الرذيلة ـ ماذا نخسر؟ نخسر نصف النوع الانساني • ان الرجل ، من أجل لذته ، يجعل جميع النساء اللواتي كان ينبغي أن يساعدن الانسانية في ارتقائها الى الحقيقة والخير ، يجعل منهن أعداء • أنظر ! من ذا الذي يعرقل وثبة الانسانية الى أمام ؟ النساء ! لماذا ! بسبب ذلك وحده • نعم ، نعم ، نعم •••

قال ذلك وأخذ يتحرك ، وفتح علبة سجائره ، وأخذ يدخن • كان واضحا أنه يريد من ذلك أن يهدىء نفسه قليلا •

١٤

واستأنف يقول بتلك اللهجة نفسها :

ـ هكذا عشت كما يعيش خنزير • والافدح من ذلك انني كنت أتخيل ، وأنا أحيا تلك الحياة ، انني لكوني لا أغوي نساء أخريات ، أعيش حياة عائلية شريفة ، وانني رجل متمسك بأهداب الاخلاق ، وأنني لا أقترف أي ذنب ، وأن ما كان يقع بيننا من مشاجرات انما يجب ان يعزى اليها ، الى سوء طبعها •

واوضح انها لم تكن بالمذنبة • انها كسائر النساء ، انها كأكثر النساء • لقد نشأت كما ينبغي ان تنشأ امرأة في بيئتنا بحكم الحالة التي هي فيها ، وكما نشأت جميع نساء الطبقة الميسورة بلا استثناء • ان الناس يتحدثون الان عن ثقافة جديدة للمرأة : كل هذا لغو • ان تعليم المرأة يكون تماما على حسب الرأي الذي يقوم في اذهان الناس عنها •

« ان تعليم المرأة سيظل متناسبا مع رأي الرجل فيها • ونحن نعلم كيف ينظر الرجال الى المرأة : « خمر ، وامرأة ، وغناء » ، كذلك قال الشاعر في قصائده • أنظر الى الشعر كله ، والى التصوير كله ، والى النحت كله ، مبتدئا بقصائد الغرام وبتماثيل فينوس وبيرنيه عاريتين ، فماذا ترى ؟ ترى أن المرأة ليست الا اداة متعة: هي كذلك في تروبا وجرتشيفسكا (١) ، وفي أرقى سهرة من سهرات الطبقة الراقية • ذلك أن عليك أن تلاحظ مكر الشيطان : اذا كانت المرأة متعة فحسب ، لذة فحسب ، فيجب على المرء أن يعرف ذلك ، وان ينظر الى المرأة على أنها شيء يقتنى لا أكثر • ولكن لا • لقد كان الفرسان يقولون أنهم يؤلهون المرأة (ربما كانوا يؤلهونها ، ولكنهم كانوا يؤلهونها كأداة متعة رغم ذلك) والان يصرح الناس بأن عليهم أن يقدروا المرأة حق قدرها وان يحترموها • الاولون يخلون لها مكانتهم ، ويتناولون المنديل من الارض اذا سقط منها ، والآخرون يعترفون لها بحق شغل جميع المناصب وحق الاشتراك في الحكم ، الى آخر ما هنالك • انهم يفعلون هذا، ولكن الرأي يبقى واحدا لم يتغير • ان المرأة أداة متعة ، وجسدها هو الوسيلة الى بلوغ هذه المتعة • وهي تعرف ذلك أيضا • ان هذا لشبيه بالرق كل الشبه • ليس الرق شيئا آخر غير استغلال فرد من الافراد لعمل يجبر على القيام به عدد من الافراد • ولكي لا يوجد الرق يجب أن لا يرغب البشر في استغلال عمل يجبر آخرون على القيام به ، ويجب أن يعدوا ذلك خطيئة أو عارا ، فما الذي نراه الآن ؟ ان الصورة الخارجية للرق قد ألغيت ، فأصبح لا يمكن بيع العبيد وشراؤهم ، والناس يتخيلون تبعا لذلك أن الرق لم يبق له وجود ، ويقنعون أنفسهم بأن الرق قد زال • ولكنهم لا يرون أن

(١) من الضواحي الشعبية بموسكو •

الرق ما يزال قائما ، لان البشر ما يزالون يحبون أن يستغلوا عمل الآخرين ، وما يزالون يرون في هذا أمرا مشروعا لاغبار عليه . ومتى رأوا أن ذلك خيرا لا ضير فيه ، فسيظل هنالك أناس أقوى من غيرهم وأمكر من غيرهم يستفيدون من ذلك وينتفعون به . والامر كذلك فيما يتصل بتحرير المرأة . وانما يقوم استرقاق المرأة على أن الرجال يريدون أن يتخذوها أداة متعة ، ويرون في ذلك خيرا لا اعتراض عليه . انهم يحررون المرأة ، ويهبون لها حقوقا مساوية لحقوق الرجل ، ولكنهم يظلون يعدونها أداة متعة . تلك تربية ينشأ عليها الاطفال ويقرها الرأي العام . وبذلك تظل المرأة العبد الذليل الداعر ، ويظل الرجل ذلك التاجر ، تاجر الرقيق . انهم يحررون المرأة من أجل أن تستطيع متابعة الدروس في مجلس الجامعة من أجل أن تصبح نائبة في مجلس الأمة ، ولكنهم يظلون يرون انها موضوع لذة . واذا علمناها أن تنظر الى نفسها كما تنظر اليها نحن جميعا ، فستظل الى الآبد كائنا متخلفا ، أو أنها ، بمساعدة أطباء أشرار ، تتخذ الاجراءات التي تقيها من انجاب الأطفال ، فتصبح بذلك مومسا تنحط لا الى ادراك الحيوانات ، بل الى درك الاشياء ، أو أنها تصبح ما هي عليه في أكثر الأحوال ، انسانا خفيف العقل ، مصابا بالهستريا ، بائسا شقيا لا سبيل له الى نمو روحي .

« لا المدارس الثانوية ، ولا المحاضرات الجامعية بقادرة على أن تغير هذه الحال ، وما من شيء يستطيع تغييرها الا تغير رأي الرجال في المرأة ، وتغير رأي المرأة في نفسها . ولن يتم هذا الا حين ترى المرأة أن البكارة خير ، وأنها ليست عارا ولا فضيحة . والى أن يتحقق هذا ، فان المثل الذي تصبو اليه كل فتاة ، مهما يكن حظها من الثقافة ، هو أن تجتذب اليها الرجال ، هو أن تجتذب اليها الذكور ، ليتاح لها أن تختار .

« ليس أمرا ذا بال أن تكون احدى النساء عالمة بالرياضيات ، وأن تكون امرأة أخرى ماهرة في العزف على الهارب • ان المرأة تعد نفسها سعيدة ، وتعد رغباتها متحققة حين تتوصل الى اغراء رجل • لذلك كانت الغاية الأساسية التي تهدف اليها امرأة هي أن تجذب • هذا ما كان في الماضي وهذا ما سيكون في المستقبل •

« كذلك تجري حياة فتاة من بيئتنا ، وكذلك تجري حياة امرأة متزوجة • تلك ضرورة قبل الزواج لاختيار الزوج ، وضرورة بعد الزواج للسيطرة على الزوج •

« وهذا الوضع يمكن أن ينتهي أو أن يقطع متى جاء الاولاد ، اذا كانت المرأة سوية فأرضعتهم هي نفسها • ولكن الأطباء يتدخلون هنا مرة أخرى •

« ان زوجتي التي كانت تريد أن ترضعهم أولادها بنفسها والتي أرضعت خمسة أطفال بعد الأول ، قد مرضت بعد ولادة الطفل الأول • فلما فحصها الأطباء ، وقد عروها من أجل ذلك دون حياء ولم يدعوا موضعا من جسدها الا وجسوه ، وكان علي أشكر لهم ذلك وأن أنقدهم عليه أجرا ، قد حظروا عليها الرضاع ، فحرمت في الأوقات الأولى ، من الوسيلة الوحيدة التي كان يمكن أن تجنبها الرغبة في الاغراء • وجئنا بمرضع أرضعت طفلنا ، أي أننا استغللنا فقر امرأة أخرى وحاجاتها وجهلها ، فأبعدناها عن طفلها في سبيل طفلنا ، وكسونا رأسها من أجل ذلك بعصابة تزينها ضفائر • ليس هذا هو الأمر المهم • وانما الأمر المهم أن زوجتي ، خلال فترة حريتها وخلال مدة الحمل والرضاع قد استيقظت في نفسها تلك الرغبة النسوية التي كانت غافية فيها قبل ذلك ، أعني الرغبة في الاغراء ، استيقظت قوية عنيفة • ونشأ عن ذلك أن استيقظت في نفسي ، قوية عنيفة أيضا ، سورات الغيرة التي ظلت تعذبني طوال

حياتي الزوجية ، كما تعذب سائر الأزواج الذين يعيشون مع زوجاتهم حياة غير أخلاقية مثلي • »

١٥

ـ طوال حياتي الزوجية لم تبارحني سورات الغيرة • ولكن هذه الغيرة كانت في بعض الفترات تزداد ضراما • وقدبدأت أحدى هذه الفترات يوم امتنعت زوجتي بأمر الاطباء عن ارضاع طفلها الاول • فقد اشتدت غيرتي عندئذ اشتدادا خاصا أولا لأن امرأتي شعرت أيامذاك بذلك القلق الذي تشعر به كل أم حين تنقطع عن ارضاع طفلها ، فتبعد عن الحياة السوية ، وثانيا لأنني اذ رأيت زوجتي تنبذ واجبها الاخلاقي نحو ابنها بسهولة ، قدرت على غير وعي (وكان تقديري في محله) أنها تستطيع أن تنبذ واجباتها الزوجية بمثل تلك السهولة ، خاصة وأن صحتها كانت جيدة وأنها أرضعت أولادنا الاخرين بعد ذلك رغم وصايا الاطباء الذين أرادوا أن يمنعوها عن ارضاعهم •

ـ واضح أنك لاتحب الأطباء !

قلت هذا اذ لاحظت أن صوته يخبث كلما أشار الى الأطباء • فقال :

ـ ليست المسألة أنني أحبهم أو لا أحبهم • وانما المسألة أنهم أفسدوا حياتي كما أفسدوا ويفسدون حياة ألوف الناس ومئات الالوف من الناس ، ويستحيل علي أن لا أربط المعلول بالعلة ••• أنا أفهم أنهم يريدون كالمحامين أن يجمعوا مالا • وأنا مستعد لأن أعطيهم نصف ما أملك من مال ، وكل انسان مستعد لأن يعطيهم نصف موارده اذا هو أدرك ما يفعلون ، شريطة أن يدعونا وشأننا • وأن لا يعكروا

صفو حياتنا العائلية وأن لا يقاربونا ولو من بعيد . أنا لم أقم باستقصاء في الموضوع ، ولكنني أعرف عشرات من الحالات ، أعرف حـالات كثيرة جدا ، تدخل فيها الأطباء ، فاذا هم يقتلون اما الطفل قبل أن يولد ، واما الأم أثناء الولادة باجراء عملية جراحية لها . ما من أحد يحصي جرائم القتل هذه ، لأن الناس يقدرون أنها تتم لخير الانسانية، كما قدروا في الزمان القديم أن جرائم القتل التي ارتكبتها محاكـم التفتيش انما كانت تتم لخير الانسانية . ان الجرائم التي اقترفها هؤلاء الاطباء لا تحصى عددا . ولكن هذه الجرائم كلها لا تعد شيئا اذا قيست بذلك التحلل الاخلاقي الناشيء عن المادية التي يحملونهـا الى العالم .

« لا أتحدث عن أن الناس لو اتبعوا وصايا الاطباء لكان عليهم أن ينفصلوا بدلا من أن يتصلوا ، مخافة العدوى التي تتربص بهم في كل مكان : انت تعلم أن اتباع وصايا الاطباء قد يوجب على المرء أن يلزم بيته لا يبارحه ، وأن يدع في فمه دائما انبوبا مملوءا بحامض الفوليك (مع العلم أنه قد اكتشف أخيرا أن هذا نفسه ليس يفيد في شيء) . لا أتحدث عن ذلك الأمر ، فهو ليس بذي بال . وانما السم الأول الذي ينفثه هؤلاء الأطباء هو أنهم يدفعون الناس الى الفحش دفعا ، ولاسيما النساء .

« ان الناس لا يقولون لأنفسهم ولا للآخرين : اذا كانت حياتك سيئة فحاول أن تحسنها . وانما يقولون : اذا كانت حياتك سيئة ، فمرد الى ذلك الى سوء جهازك العصبي ، الخ ، فما عليك الا أن تذهب الى الاطباء ليصنعوا لك دواء ثمنه ٣٥ كوبك ، فتجرعـه فتشفى . فاذا زادت حالتك سوءا فتجرع أدوية أخرى ، وامض الى أطباء آخرين !

« يا له من تدبير رائع !...

« على أن الأمر ليس هو هذا أيضا • وانما أريد أن أقول لك ان امرأتي كانت ترضع أطفالها بنفسها ، وان حالات الحمل والارضاع هي الامور الوحيدة التي كانت تنقذني من سورات الغيرة • ولولا هذا لوقع كل شيء قبل ذلك • لقد أنقذنا الأطفال • ولدت خمسة أطفال خلال ثماني سنين ، وأرضعتهم جميعا الا الأول •

سألته:

ـ أين هم أولادك الآن •

فسألني بلهجة وجلة :

ـ أولادي ؟

ـ معذرة ! قد يؤلمك أن تتذكر هذا الأمر •

ـ أبدا • لقد ذهب أولادي الى خالتهم وأخيها • لقد انتزعوا مني أولادي • تنازلت لهم عن ثروتي ، ولم يردوهم الي • ذلك لأنهم يعدونني مجنونا بعض الشيء • لقد كنت مع أولادي منذ قليل ، رأيتهم ، ولكن لم يعهد بهم الي • ولو قد عهد بهم الي لنشأتهم تنشئة تجعلهم لا يشبهون أبويهم ، في حين أن عليهم الآن أن يبقوا كما هم • ولكن ما حيلتي ؟ واضح أنني لن أستطيع أن أضمهم الي ، وأن الناس لن يصدقوني • لست أدري أنا نفسي هل أملك من القوة ما يساعدني على أن أتولى تربيتهم • أظن أنني لا أملك من القوة على ما يساعدني على ذلك • أنا انسان محطم ، أنا انسان عاجز • ومع ذلك هناك شيء ما أزال أملكه • أعرف هذا • نعم نعم هذا صحيح • انني أعرف شيئا سيظل يجهله الناس مدة طويلة •

« نعم ، ان أولادي في صحة جيدة ، وهم يكبرون من تلقاء أنفسهم ، وينشأون متوحشين ، كسائر من يحيطون بهم • لقد رأيتهم ثلاث مرات ، ولا أستطيع أن أصنع لهم شيئا • أنا ذاهب

الآن الى الجنوب ، عائد الى بيتي . انني أملك هناك منزلا وحديقة .

« نعم ان الناس لن يطلعوا بسرعة على ما أعرف . انهم يستطيعون أن يتعلموا بسرعة مقدار الحديد والمعادن في الشمس والنجوم ، أما أن يعرفوا ما تشتمل عليه حقارتنا ، حقارة الخنازير ، فذلك أمر صعب ، أمر على جانب رهيب من الصعوبة !

« أنت تصغي الى كلامي على الأقل ، واني لأشكر لك هذا الجميل .

١٦

ذكرتني منذ لحظة بأولادي ما أكثر الأكاذيب هنا أيضا ، في موضوع الأطفال ! انهم نعمة من السماء ... انهم فرحة ... كذلك يقول الناس . وكل هذا زور وبهتان . كان ذلك صادقا في الماضي ، أما الآن فلا وجود لشيء من هذا كله . الأولاد عذاب ، ولا شيء غير ذلك . أكثر الامهات يشعرون بهذا رأسا ، وقد يفصحن عنه على غير عمد . اسأل عددا من الأمهات في بيئتنا ، يقلن لك انهن من مخافة أن يرين أولادهن يتعذبون أو يموتون ، يتمنين أن لا ينجبن أطفالا ، فاذا ولد الاطفال لم يشأن أن يرضعنهن حتى لا يتعلقن بهم وحتى لا يتألمن . ان اللذة التي يولدها لهن الطفل بفتنته ، بيديه الصغيرتين ، بقدميه الصغيرتين ، بشكله كله ، هي دون الألم الذي يشعرن به حين يتصورونه مريضا أو ميتا . انهن حين يوازن بين فوائد الطفل وأضراره يرون أن من الخير أن لا ينجب المرء أطفالا . هن يقلن هذا بصراحة وجرأة ، متوهمات ان هذه العواطف ناشئة عن حبهن للاطفال ، هذا الحب الذي هو عاطفة محمودة يفاخرن بها ، ولا يدركن أنهن بهذا ينكرن الحب ويؤكدون أثرتهن . ان

لذتهن بجمال الطفل أقل من الآلام التي يولدها لهن خوفهن عليه •
لذلك يجب أن لا يولد هذا الطفل ، الذي سيحببنه رغم ذلك • انهن
لا يضحين بأنفسهن من أجل الكائن الذي يحببنه ، بل يضحين به
سلفا من أجل أنفسهن •

« وواضح أن هذا ليس من الحب في شيء ، بل هو الأثرة
بعينها • ولكن الناس لا يملكون الجرأة على اتهام هاته الامهات
الثريات ، لأنهم يتذكرون جميع تلك الآلام التي يعانونها بفضل
أولئك الأطباء أنفسهم متى مرض أبناؤهم • انني اذ أتذكر كيف
كانت حياة زوجتي وكيف كانت حالها ، في تلك الأوقات الأولى ،
مع ثلاثة أطفال ، ثم مع أربعة ، حين كان هؤلاء الأطفال يستغرقونها
استغراقا تاما ، فان الذعر ليستبد بي • لم يكن لنا حياة خاصة بنا •
لم تكن حياتنا الا خطرا متصلا ، ومحاولات لاتقاء الخطر ، وعودة
هذا الخطر ، وجهودا جديدة لاجتنابه ، ثم خلاصا ــ كانت حياتنا
أشبه بحياة باخرة توشك أن تغرق • وكان يتراءى لي في بعض
الأحيان ان امرأتي كانت تتظاهر تظاهرا بالقلق على الأولاد ، وأنها
لم تفعل ذلك الا لتنتصر علي • كان الامر مغريا ، بسيطا ، وكان
ذلك يحل جميع المشكلات على ما تحب • كان يتراءى لي في بعض
الأحيان أن كل ما كانت تفعله وتقوله انما كان تظاهرا • ولكن
لا ، لقد كانت تتألم هي نفسها بسبب الاطفال ، بسبب صحتهن ،
بسبب أمراضهن • كان ذلك كله ألما لا يطاق ، لي ولها على السواء •
كان يستحيل عليها أن لا تتألم • ذلك أن الميل الى الأطفال ، والحاجة
الحيوانية الى ارضاعهم ، والى العناية بهم ، والى حمايتهم والدفاع
عنهم ، كل ذلك كان قائما في نفس زوجتي كما هو قائم في نفوس
أكثر النساء ، وانما يعوزه أن يخلو من الخيال والعقل ، كما يخلو
من ذلك لدى الحيوانات • ان الدجاجة لا تخاف مما قد يقع

لصغارها ، ولا تعرف الأمراض التي يمكن أن تصاب بها صغارها ، لا ولا الوسائل التي يتخيل البشر انهم قادرون بهـــا عـلى محاربة الأمراض والموت • ليس صغار الدجاجة عذابا للدجاجة • انهـا تعمل لصغارها ما يحسن بها أن تعمله ، وما يفرحها أن تعمله : صغارها فرحة لها • فاذا أصاب صغيرها مرض ، كانت غايتهـــا به محدودة : فهي تدفئه وتطعمه • وهي حين تفعل ذلك تعرف أنها تفعل كل ما يجب عليها فعله • فاذا نفق صغيرها لم تتساءل لمـاذا نفق ، والى أين ذهب ، وانما تفرق قليلا ، ثم تمضي تعيش كمـا كانت تعيش • أما عند نسائنا الشقيات ، وعند امرأتي بوجه خاص ، فالأمر يختلف عن ذلك كل الاختلاف •

لست أتحدث عن الأمراض وشفائها وتربية الأولاد وما الى ذلك ، وانما أريد أن أقول لك ان امرأتي كانت تســـمع من الناس وتقرأ في الكتب عن قواعد في التربية متنوعة الى أبعد حدود التنوع متغيرة أشد التغير • ماذا أطعم طفلي ؟ أأطعمه هذا الطعام ؟ لا ، لا هذا ، بل ذاك • كنا في كل أسبوع جديد نتعلم قواعد جديدة في جميع ما يتصل بتربية الطفل : كيف يلبس ، كيف يشرب ، كيف يستحم ، كيف يوضع في السرير ، كيف يتنزه ، كيف يخرج الى الهواء الطلق ، الخ الخ ، لكأن البشر لم يلدوا أولادا الا في ذلك اليوم !•• فاذا لم يستحم الطفل كما ينبغي أن يستحم ، واذا لم يتناول من الطعام ما يجب أن يتناوله ، فأصـــابه مرض ، كان واضحا اننا نحن المسئولون عن ذلك ، أننا نحن المذنبون ، لاننا لـم نفعل ما كان يجب علينا أن نفعله •

« ان المرء يعاني عذابا حتى حين يكون ابنه في صحة جيدة ، فاذا مرض الطفل ، كان ذلك هو الجحيم • ويقدر النـــاس أن المرض يشفى ، وأن هناك علما يشفي من الامراض ، وأن هناك

رجالا – هم الاطباء – يعرفون كيف يعالجون المرضى ، لا كلهم طبعا بل خيارهم • فاذا مرض الطفل كان يجب علينا أن نعثر على واحد من هؤلاء الاطباء النخبة لينقذه من مرضه • فاذا لم نعثر على هذا الطبيب ، أو كنا لانقيم في البلدة التي يقيم هو فيها هلك الطفل • لم تكن هذه القناعة قناعة امرأتي وحدها بل قناعة جميع النساء اللواتي يحطن بها في بيئتها • هذه ايكاتيرينا سافاينوفنا فقدت ولدين من أولادها لأن ايفان زارهاروفتش لم يستدع في اللحظة المناسبة • وهذا ايفان زارهاروفتش نفسه ينقذ البنت الكبرى من بنات ماريا ايفانوفنا لانه تولى معالجتها من المرض الذي ألم بها • وهذا بتروف وقد اتبع وصاياه فترك الفندق في الوقت المناسب ، فظل أولاده أحياء، ولولا ذلك لماتوا • وهذه فلانه كان ابنها ضعيفا ، فنصح ذلك الطبيب بالسفر الى الجنوب ، ففعلت ذلك ، فتحسنت صحة الابن وأنقذ • ذلك كله ما ترويه النساء بعضها لبعض في بيئتنا • فكيف لا تتألم الام وكيف لاتقلق طوال حياتها مادامت حياة أطفالها الذين ترتبط بهم ارتباطا حيوانيا رهنا بنصيحة يزجيها ايفان زارهاروفتش متى استدعي في اللحظة المناسبة ؟ ان ماسيقوله ايفان زاهاروفتش لايعرفه أحد ، ولا يعرفه هو نفسه ، وهو يدرك أنه لايعرف شيئا ، وأنه لا يستطيع أن يساعد في شيء ، ولكنه يدبر أمره بطريقة من الطرق حتى يستمر الناس على الاعتقاد بقدرته الجبارة • لو كانت المرأة حيوانا تماما لما عانت هذا العذاب كله ، ولو كانت انسانا تماما لآمنت بالله وقالت لنفسها مايقوله المؤمنون لأنفسهم : « الله وهبه لي ، وهو الذي يسترد اليه وديعته فلتكن مشيئة الله ! »

« هكذا كانت الحياة مع الاطفال لا فرحا بل عذابا ، عذابا لامرأتي وعذابا لي • كيف السبيل الى الخلاص من هذا الالم ؟ كانت امرأتي تتألم في غير انقطاع • كان يتفق لنا أن نهدأ بعد

أزمة من أزمات الغيرة ، أو بعد مشاجرة من المشاجرات ، فنرغب عندئذ في أن نعيش ، وأن نقرأ ، وأن نفكر ، ونشرع في تحقيق هذه الرغبة ، ولكن هاهي ذي فاشا تقيء ، أو ها هي ذي ماشا ملوثة الغائط بالدم ، أو هذا هو آندريوشا تبثر جلده ... لا لا ، لقد انتهى كل شيء ، وليس الى الحياة من سبيل .الى أين يركض ؟ عن أي طبيب نبحث ؟ كيف نعزل المريض ؟ وها نحن أولاء نبدأ تعقيم الملابس ، وقياس الحرارة ، وتجريع الادوية ، واستشارة الأطباء . فما نكاد ننتهي من ذلك حتى يقع شيء آخر . ان الحياة العائلية المطردة المستقرة لا وجود لها . كان هنالك ، كما قلت ، كفاح مستمر ضد الأخطار ، الواقعية والوهمية على السواء . والأمر على هذا النحو في اكثر الأسر الآن . ولقد كان في أسرتنا حادا بوجه خاص ، لأن امرأتي كانت سريعة التصديق ، وكانت تحب الاطفال .

«وهكذا لم يكن وجود الاطفال يصلح حياتنا ، بل كان يفسدها ويسممها . أضف الى ذلك أن الأولاد كانوا فرصة جديدة لقيام المشاجرات بيني وبين زوجتي . فمنذ أنجبنا أطفالا أصبح هؤلاء الأطفال وسيلة من وسائل الخلاف وموضوعا من موضوعات الخلاف ، وكان هذا يزداد كلما تقدموا في السن . والحق أنهم لم يكونوا موضوعا من موضوعات الخلاف فحسب ، بل كانوا كذلك أداة من الأدوات التي كنا نستعملها فيما يقوم بيننا من صراع ، فكأننا كنا نقتتل بواسطة الاولاد . كان لكل منا واحد يؤثره على غيره أداة للشجار . كانت فاشا هي التي أقاتل أنا بواسطتها ، وكانت ليزا هي التي تقاتل امرأتي بواسطتها . أضف الى ذلك أن أولادنا حين كبروا واتضحت معالم طباعهم ، أصبحوا حلفاء يحاول كل منا ان يجتذبهم اليه وأن يضمهم الى معسكره . وكانوا يتألمون ألما رهيبا - يالهم من تعساء ! - ولكننا نحن ، أنا وزوجتي ، في هذه الحرب الدائمة

التي تدور رحاها بيننا ، لم يكن يتسع وقتنا للتفكير في هذا الألم الذي نسببه لهم • كانت البنت الصغيرة هي حليفتي ، أما امرأتي فكانت تؤثر أكبر أطفالنا من البنين حليفا لها • ولا أكتمك أن أبني هذا كان يثير في نفسي الحنق والبغض في كثير من الأحيان •

١٧

ـ هكذا كنا نعيش • وازدادت العداوة في علاقاتنا شيئا بعد شيء • وأخيرا لم يعد الخلاف هو الذي يولد العداوة ، بل أصبحت هذه العداوة هي التي تولد الخلاف : فكنت أخالف امرأتي مقدما في كل رأي تراه مهما يكن هذا الرأي ، وكذلك كانت تفعل هي أيضا •

« وأصبح أمرا مقررا ، منذ السنة الرابعة ، أننا لا نستطيع لا أن نتفاهم ، ولا أن نعيش معا على علاقات طيبة • وأصبحنا لا نحاول أن نتفق بالشرح والاقناع ، وأصبح كل منا لا يحيد عن مواقفه قيد شعرة في أبسط الامور ، وخاصة ما اتصل منها بالاولاد ، اني حين أفكر في هذا الأمر الآن ، أدرك أن الآراء التي كنت أدافع عنها ، لم أكن في حقيقة الأمر أحرص عليها حرص من لا يستطيع أن يضحي بها • ولكن كان يكفي أن تكون آراء زوجتي مخالفة لها حتى أتشبث بها ، لأن التنازل عنها يعني الرضوخ والاستسلام ، وهذا ما لم أكن أرتضيه ، وكذلك كانت تفعل هي أيضا • لعلها كانت تعتقد أنها على حق دائما ، وكنت أنا في نظر نفسي ، الحقيقة المقدسة بعينها • فكنا حين نجتمع نكاد نصمت دائما ، أو نقتصر على أحاديث أقسم أن الحيوانات قادرة على أن تديرها بينها : « كم الساعة الآن ؟ آن لنا أن ننام ؟ ماذا نتغدى اليوم ؟ الى أين نذهب ؟

ماذا في الجرائد من أخبار ؟ يجب أن نستدعي الطبيب • ماشا تشكو من ألم في حلقها •".»

« فما ان نتجاوز في أحاديثنا هذه الدائرة الضيقة الى أبعد حدود حتى يبدأ الحنق • فكانت المشاجرات والكلمات القارصة التي تعبر عن البغض تنفجر بصدد أمور لايمكن أن يكون لها أي شأن خطير ، لا بالنسبة الى امرأتي ولا بالنسبة الي أنا : فنجان قهوة ، غطاء مائدة ، عربة ••• ومهما يكن من أمر فلقد كنت أحس نحو امرأتي ببغض رهيب يغلي في نفسي غليانا • كنت في بعض الأحيان أنظر كيف تصب الشاي ، وكيف تهز قدمها ، وكيف تقرب الملعقة من فمها ، وكيف تحدث صوتا حين تشرب ، فأكرهها من أجل ذلك ، كأنها تقترف عملا من أسوأ الاعمال • ولم أكن ألاحظ أيامئذ أن فترات البغض كانت تقع مطردة ، وتتناسب مع فترات ما كنا نسميه حبا : فترة حب ـ فترة بغض ، فترة حب عنيف ـ فترة بغض طويل ، فترة حب معتدل ـ فترة بغض قصير • وما كنا ندرك أيامئذ أن هذا الحب وهذا البغض هما تلك العاطفة الحيوانية الواحدة نفسها من جانبين • ان الحياة يمكن ان تصبح فظيعة ولو استطعنا أن ندرك الموقف • ولكننا كنا لاندركه ولا نراه • ان الخلاص الذي يمكن أن يحققه لنفسه انسان لايعيش حياة مطردة ، وكذلك العذاب الذي يعانيه ، انما سره أنه يستطيع أن يتعامى فما يدرك الكارثة التي هو فيها فكذلك كنا نفعل • كانت تحاول هي أن تذهل عن نفسها بمشاغل مستعجلة تقتضي جهدا : كأعمال المنزل والاثاث والزينة وملابس الأطفال وتعليمهم وصحتهم • وكنت أنا أذهل عن نفسي بمشاغلي أيضا : الشراب والخدمة والصيد والقمار • كنا في شغل دائم ، وكنا نحس أننا كلما قلت أوقات الفراغ كان في وسع كل منا أن يزداد سوء معاملته للآخر • كنت أخاطبها بيني وبين

نفسي قائلا : « من السهل عليك أن تثيري المشاكل ... لقدعذبتني طوال الليل مع أن اجتماعا اداريا ينتظرني في الغداة . » وكانت تخاطبني بدورها ، لا بينها وبين نفسها فحسب ، بل جهارا أيضا ، قائلة : « أنت ناعم البال لايهمك شيء ، أما أنا فلم أنم الليل كله بسبب الولد . » ان جميع النظريات الجديدة التي تتحدث عن التنويم المغناطيسي والامراض العقلية والهستريا ليست سخفا فحسب ، بل هي أيضا شيء مضر مؤذي . لاشك أن شاركو لو وقف على أمرنا لقال عن امرأتي انها كانت مصابة بالهستريا ، ولقال عني انني انسان شاذ ، ولعله كان يحاول أن يشفينا ، مع أنه ليس بنا مرض يشفينا منه .

« هكذا كنا نعيش اذن في ضباب دائم لاندرك الوضع الذي نحن فيه . ولو لم يقع ما وقع ، ولو عشت على تلك الحال الى سن الشيخوخة ، لقدرت في تلك السن أنني عشت حياة كحياة سائر الناس ، لا هي بالطيبة كثيرا ، ولا هي بالنسبة كثيرا . ولما فهمت تلك الهوة من الشقاء التي كنت أتردى فيها ، ولما فهمت ذلك الجو من الكذب الفظيع الذي كنت اتقلب فيه .

« كنا سجينين قد شدا بوثاق واحد ، يكره كل منهما الآخر ، ويسمم كل منهما حياة صاحبه ، ويحاول أن لايرى ذلك . كنت لا أعرف بعد أن تسعة وتسعين في المائة من الازواج يعيشون في هذا الجحيم نفسه الذي كنت أعيش فيه ، وأن الأمور لايمكن أن تجري غير هذا المجرى . كنت في ذلك الحين أجهل هذا عن غيري وعن نفسي على حد سواء .

« أمر غريب .. ما أعجب الالتقاءات التي يمكن أن تقع في حياة مطردة وغير مطردة ! في اللحظةالتي يصبح فيهاالأبوان لايطيقان

الحياة المشتركة يصبح النزول الى المدينة ضرورة لابد منها لتربية الأطفال • »

قال صاحبي هذا وسكت ، وضحك مرتين ضحكته الساخرة تلك التي تشبه أن يكون الآن شهقات مخنوقة • وكنا نقترب من المحطة • قال :

ـ كم الساعة الآن ؟

فنظرت فاذا هي الساعة الثانية •

وسألني :

ـ أأنت تعب ؟

ـ لا ، ولكنك أنت تعب •

ـ اسمح لي • سوف أتنزه قليلا ، وأشرب شيئا من الماء •

قال ذلك ثم اجتاز العربة مترنحا • فلما عاد من الباب الآخر كنت جالسا وحدي ، مستغرقا في تأمل ما قصه علي ، فلم ألاحظ عودته •

١٨

استأنف قصته يقول :

ـ نعم ، اني أتحمس دائما • لقد فكرت طويلا ، فغيرت رأيي في أمور كثيرة ، وأريد أن أقول هذا كله •

« بدأنا حياتنا في المدينة • ان الانسان يمكن أن يعيش في المدينة مائة سنة دون أن يلاحظ أنه قد مات وتفسخ منذ مدة طويلة• ان المرء في المدينة لايتسع وقته لأن يحلل نفسه ، فهو في شغل دائم • فالأعمال والواجبات الاجتماعية والصحة والفنون وتطبيب الأولاد وتربيتهم تملأ وقته كله • يجب عليه أن يستقبل فلانا أو

فلانا من الناس ، أو يجب عليه أن يرد له زيارته • يجب أن يرى هذه أو تلك ، ويجب أن يستمع الى هذا أو ذاك • ان المدينة تضم في كل لحظة شخصا أو شخصين أو ثلاثة من مشاهير الرجال لا يمكن أن يفوت المرء على نفسه رؤيتهم لأي حجة من الحجج • وتارة يجب عليه أن يعالج نفسه من مرض ألم به ، وتارة يجب عليه أن يعالج هذا أو ذاك من أولاده • وينبغي له أن يتفق مع معلمين يتولون تدريس أبنائه ، وأن يتفق مع معيدين ، وأن يتفق مع مربية ، والحياة تمضي أثناء ذلك فارغة كل الفراغ •

« وهكذا كنا ، ونحن نحيا هذه الحياة في المدينة ، نشعر من معيشتناتحت سقف واحد بألم أقل • أضف الى ذلك أننا قد شغلنا في الاوقات الأولى بعمل يفتن المرء عن نفسه : هو تنظيم حياتنا في مدينة جديدة ، في منزل جديد ، والانتقال من المدينة الى الريف ومن الريف الى المدينة •

« عشنا على هذه الحال شتاءين ، ووقع أثناء ذلك حادث تافه لاينتبه اليه المرء ، حادث يبدو أنه ما كان ينبغي أن يعد شيئا ،ولكنه هو السبب فيما حدث •

« كانت زوجتي مريضة • ومنعها الأطباء من الحمل ، وأشاروا عليها بالوسيلة التي يجب أن تستعملها لمنع الحمل • وقد كرهت هذا أشد الكره ، وكافحت لأحول دونه ، ولكنها عندت وأصرت فما وسعني الا أن أخضع لمشيئتها • وبذلك زال المبرر الوحيد الذي يسوغ هذه المعيشة التي نعيشها معيشة الخنازير ـ فزادت حياتنا دمامة على دمامة •

« ان الفلاح أو العامل في حاجة الى أن يكون له اطفال ، رغم ما يجد من عناء في اطعامهم ، وبذلك يكون لعلاقاته الزوجية مايبررها أما نحن فاذا أنجبنا عددا من الأطفال ، أصبح يجب علينا أن لاننجب

أطفالا آخرين ، لأنهم هم ونفقات ومزيد من التعب وشركاء في الارث • ألا ان حياة الخنازير التي نعيشها ليس لها ما يسوغها • اننا نتخلص من الأطفال بوسائل مصطنعة أو نعدهم شقاء وثمرة من ثمرات قلة التبصر ، وهذا أنكى وأفدح •

« اننا لانبحث عن مبرر • اننا نبلغ من الانحطاط الى الدرك الأسفل أننا لانرى ضرورة للبحث عن مبرر •

« ان الجزء الاكبر من عالمنا المتحضر يستسلم لهذا العهر دون أن يخامر وجدانه أي ألم •

« لا محل عندنا لوخز الضمير ، لامحل عندنا لألم الشعور ، لأننا ليس لنا شعور ، اللهم الا الشعور برأي الناس وقانون الجزاء، ان صح هذا التعبير • ورأى الناس وقانون الجزاء لايخترقان هنا ، لذلك لا نشعر بأي خجل أو عار : ان كل الناس يفعلون هذا ، ومن بينهم ماريا بافلونا وايفان زاهاروفتش • وفيم نكثر الأشياء ، وفيم نحرم أنفسنا من امكان التنقل بين الصالونات ومشاركة المجتمع الراقي حياته !

وما ينبغي أيضا أن نشعر بأننا مذنبون أمام قانون الجزاء ، ولا أن نخاف منه • ان البغايا والنساء اللواتي يتردد اليهن الجنود يرمين أطفالهن في الغدران أو الآبار : فيجب أن يعاقبن بالسجن طبعا ، أما نحن فنفعل كل شيء في حينه كما ينبغي أن يفعل •

« وهكذا عشنا سنتين • وأخذت أدوية أولئك المجرمين ـ الأطباء ـ تفعل فعلها : ازدادت زوجتي جمالا وفتنة ، وتفتحت تفتح الأزهار الرائعة في مطالع الصيف • وشعرت هي بذلك وأخذت تعنى بنفسها • واكتسبت جمالا محرضا مثيرا يقلق الرجال • ان لها كل القوة التي تتدفق في امرأة في الثلاثين ، لا تلد ، وتتناول جيد الطعام ، وتعيش في اهتياج • أصبح منظرها يثير القلق • أصبحت

اذا مرت أمام الرجال تخطف أبصارهم • أصبحت كحصان يأكل جيد الطعام ، أزيلت عنه ألجمته فجأة بعد أن ظل خلال مدة طويلة من غير حركة • لم يبق لامرأتي أي لجام ، شأنها في ذلك شأن تسع وتسعين من نسائنا • وأحسست أنا بهذا ، وخفت منه •

١٩

نهض صاحبي فجأة وجلس قرب النافذة • ثم قال وهو ينظر من النافذة :

ـ معذرة •

وصمت نحو ثلاث دقائق • ثم زفر زفرة أليمة ، وعاد فجلس أمامي • لقد تغير وجهه ، وأصبحت عيناه تثيران الشفقة ، وتخددت شفتاه بابتسامة غريبة •

« انني متعب قليلا ، ولكنني سأستمر في رواية قصتي ••مايزال في الوقت متسع • ان الفجر لم ينبلج بعد •

وأردف يتم قصته بعد أن أشعل سيجارة :

« نعم ، منذ أن انقطعت زوجتي عن الحمل سمنت ، وزال عنها ذلك المرض ـ أعني العذاب المتصل بسبب الأطفال ـ • الحق أن ذلك المرض لم يزل زوالا تماما • ولكن امرأتي كانت كمن استيقظ بعد سكر ، فاسترد وعيه ، ورأى لأول مرة أن ثمة عالما خلقه الله ، عالما مترعا بالأفراح ، عالما كانت لاتعرف كيف تعيش فيه ، عالما نسيته ، عالما كانت لاتفهمه البته « لا تدعي هذا العالم يفلت منك ! ان المرء لايتدارك الوقت الذي فات ! » هذا ما خيل الي أنها تقوله لنفسها ، أو أنها تحسه ، ولم يكن يمكن أن تجري الأمور غير هذا المجرى • لقد نشأت على الاقتناع بأن العالم ليس فيه الا

شيء واحد يستحق الاهتمام ، هو : الحب • فتزوجت ، وعرفت صورة من صور هذا الحب لم تكن هي الصورة التي تتوقعها ، بل كانت كثيرا من خيبة الظن والآلام وعذابا لم يكن في الحسبان هو العذاب الذي يولده لها عدة أطفال • وقد أرهقها هذا العذاب • ثم ها هي ذي تعلم ، بفضل الأطباء الذين لايضنون بمد يد المعونة الى أحد ، أن في وسعها أن تستغني عن الأولاد • ففرحت بذلك ، وجربته ، وأحست أنها تعيش مرة أخرى للشيء الوحيد الذي كانت تعرفه ، ألا وهو الحب • غير أن حب زوجها ، هذا الحب الذي تلوثه الغيرة وانواع من الخبثوالسوء، أصبح لا يشفي غليلها• فكانت تحلم بحب آخر نقي جديد ، أو هذا ما تصورته أنا على كل حال • فكان يبدو لي أنها تنتظر شيئا ما • رأيت هذا وقلقت منه • وكان يتفق في كثير من الاحيان، وهي تخاطبني بواسطة أناس تتحدث معهم أي وهي توجه الي كلامها ، أن تعبر عن رأيها ببراعة وحذق ، دون أن يخطر على بالها أبدا أنها كانت منذ ساعة تقول لي كلاما هو نقيض الرأي الذي تبديه الآن ، فكانت تقول بلهجة شبه جادة أن ما تحيط به الأم أطفالها من ألوان الرعاية كذب ، وأن انفاق المرء حياته كلها في سبيل أطفاله أمر لا يجدر ، وأن للصبا حقوقا ، وأن على الانسان أن يستفيد من حياته • وأصبحت زوجتي أقل اهتماما بالأولاد ، وأصبحت لاتحزن لشأنهم كما كانت تحزن في الماضي ، وغدت تعنى بهندامها وبملذاتها وباستكمال أسباب فتنتها أكثر مما كانت تعنى بذلك كله من قبل ، مخفية ذلك حتى عن نفسها •وعادت تعزف على البيانو بحماسة شديدة ، وذلك أمر كانت قد هجرته هجرا تاما • ان كل ما حدث قد بدأ من هنا •••

قال صاحبي هذا وتحول ببصره مرة أخرى نحو النافذة ، ولكنه لم يلبث أن عاد يكمل حديثه وهو يبذل جهدا واضحا كل الوضوح :

« نعم ، ظهر ذلك الرجل ... »

ثم تردد وضحك ضحكته الساخرة تلك مرتين .

لاحظت أنه يشق عليه أن يسمي ذلك الرجل ، وأن يتذكره ، وأن يتحدث عنه . ولكنه بذل جهدا جديدا ، فاذا هو يقول بعزم واصرار كمن حطم الحاجز الذي كان يمنعه من متابعة الحديث :

« في نظري ، في رأيي ، كان ذلك الرجل انسانا سيئا، لا أقول هذا بسبب الدور الذي لعبه في حياتي ، بل لأنه كان كذلك حقا . ومهما يكن من أمر ، فان كونه سيئا يؤكد مرة أخرى أن زوجتي كانت غير مسئولة . ولو لم يكن هو ، لكان غيره ، وقد وقع ما كان يجب أن يقع ! »

قال صاحبي ذلك ، وسكت من جديد . ثم استأنف :

« نعم ، لقد كان موسيقيا ، عازفا على الكمان لم يكن يحترف العزف ، وانما كان وسطا بين الاحتراف والهواية .

« كان ابوه رجلا ثريا من أصحاب القصور ، وكان جارالنا . ولكنه دمر ثروته ، فكان لابد لأولاده — وهم ثلاثة ، من أن يجدوا لأنفسهم مخرجا . وقد أرسل أصغرهم الى اشبينته بباريز ، فانتمى هنالك الى الكونسترفاتوار ، وخرج منه عازفا على الكما ن ، وأقام حفلات موسيقية . كان رجلا ... »

لاحظت أن محدثي أراد أن يصمه بوصف سيء ، ولكنه مالبث أن لجم لسانه ، وأردف يقول :

« لا أعرف كيف عاش ، ولكنني أعرف أنه ظهر ذلك العام في روسيا ، وجاء الي يزورني .

« ان له عينين كاللوز ، وشفتين كالقرمز مبتسمتين ، وشاربين لامعين . وكانت تسريحة شعره على آخر موضة . ان وجهه من الوجوه ذات الجمال العامي ، التي يقول فيها النساء : لابأس بها» .

وكان ضعيف البنية ، ولكن على غير تشوه ، وكان بارز الردفين كالنساء • وكان يميل الى رفع الكلفة ، ولكن على غير غلظة ، فكان مستعدا للتوقف عند أيسر مقاومة • وكانت له مهابة في المظهر : انه ينتعل حذاء ذا أزرار ، ويعقد على عنقه ربطة زاهية الألوان على عادة الأجانب الذين أقاموا في باريز ردحا من الزمن ، وكان هذا كله يؤثر في النساء ، لجدته ، تأثيرا خاصا • وكانت حركاته ظاهرة المرح ذات زهو • وكان أسلوبه في الحديث أسلوبا خاصا ، فهو أنصاف كلمات ، وعبارات لاتنتهي ، كأنه يفرض أنك تعرف مايريد أن يقوله ، وتستطيع أن تكمله من عندك •

« هذا الرجل كان بموسيقاه هو السبب في كل ما وقع • لقد أظهروا الأمر كله ، أثناء المحاكمة ، على أنه جريمة غيرة • والحقيقة أنه لم يكن كذلك تماما • وقرر القضاة انني رجل خانته امرأته ، وأنني قتلت زوجتي دفاعا عن شرفي الذي لوث (هذا ما قيل) ، وبسبب ذلك برأتني المحكمة • وقد حاولت أثناء المحاكمة أن أشرح الأمر ، ولكنهم اعتقدوا أنني أحاول أن أرد لزوجتي شرفها •

« ان علاقتها بهذا الموسيقي ، كائنة ما كانت ، ليس لها من شأن لا بالنسبة الي ولا بالنسبة اليها • وليس لها من معنى الا فيما حدثتك عنه الآن ، أعني ما اتصفت به حياتي من أنها أشبه بحياة خنزير • لقد وقع كل ما وقع لأنه كان بيننا تلك الهوة الفظيعة التي وصفتها لك ، ذلك البغض الشديد المتوتر المتبادل الذي كان عند أول فرصة كافيا لاحداث أزمة • لقد أصبحت مشاجراتنا ، آخر الأمر ، شيئا فظيعا • ومما يبعث على أشد الدهشة أن هذه المشاجرات كانت تعقبها رغبة عنيفة حيوانية •

« لو لم يظهر هذا الرجل في حياتنا ، لجاء شخص آخر • ولو لم تكن تلك الغيرة هي الحجة والذريعة لوجدنا حجة أخرى

وذريعة أخرى • وما أزال أصر على الاعتقاد بأن جميع الأزواج الذين يعيشون كما عشت ، يجب عليهم اما أن يستسلموا للفحش ، واما أن ينفصلوا عن زوجاتهم ، أو أن يقتلوا أنفسهم أو زوجاتهم كما فعلت أنا • واذا أفلت أحد من هذا ، كان ذلك استثناء نادرا • انني قبل أن أفعل ما فعلت هممت عدة مرات أن أنتحر ، كما أن زوجتي حاولت أن تتجرع السم •



٢٠

ـ نعم ، كانت هذه هي حالنا قبل وقوع الحادث • وكنا نعيش حياة هادئة في ظاهرها ، ولم يكن ثمة ما يوجب قطع هذه الهدنة • وفي ذات يوم بدأت حديثا مع امرأتي في موضوع كلب حصل على نيشان في المعرض • فما كان من امرأتي الا أن قالت على الفور : لم يكن ذلك نيشانا بل دبلوما • فبدأت المشاجرة • وأخذنا ننتقل من موضع الى آخر ، واخذ كل منا يلوم صاحبه : « هذا معروف ، أنت تتصرف دائما هكذا » ، « لقد قلت ذلك » ، « بل لم أقله ، والا كان معنى هذا أنني كاذب » • ان المرء يحس باقتراب المعركة الرهيبة ، فيتمنى لو ينتحر أو يقتل • وأنا أحس أن المعركة بدأت ، وأخاف من ذلك خوفي من النار ، وأحب أن ألجم لساني ، ولكن كياني كله يكون قد غلى كرها وبغضا • وتكون هي في مثل هـــذه الحالة ، بل في حالة أسوأ منها أيضا ، فتعكس معنى كل كلمـــة أقولها ، وتحيلها كلاما كاذبا • ان كل كلمة من كلماتها تقطر سما ، فهي تختار أفحش القول لتجرحني وتؤذيني • واشتد الشجـــار وعنف • وصرخت ملء صوتي : « اخرسي » ، أو قلت شيئا من هذا القبيل •

فخرجت من الغرفة سريعة ، وهرعت الى حجرة الأطفال ، فتشبثت بذراعها أمنعها من الخروج لأتم الجملة التي بدأت بها رغبة في أن أبرهن لها أنني على حق ، فتظاهرت بأنني آلمت ذراعها ، فصرخت : « يا أولاد ، يا أولاد ، أبوكم يضربني ! » فصرخت بدوري : « لا تكذبي » ، فاستأنفت صياحها : « ليست هذه أول مرة » • وهرع الأولاد الى لقائها ، فاخذت تهدئهم ، فقلت : «كفى تمثيلا ! » ، فأجابت : « كل شيء في ظنك تظاهر • ان في وسعك أن تقتل انسانا ثم تقول انه يتظاهر بالموت • الآن فهمت • انك لا تريد غير هذا ! » فصرخت : « يا ليتك تفطسين ! »

« أذكر انني شعرت من هذا الكلام الفظيع ، أنا نفسي ، بذعر • كنت لا أتصور أبدا أن في وسعي أن أنطق بهذه الألفاظ البشعة الفظة ، وما زلت أستغرب كيف ندت هذه الكلمات عن شفتي • وبعد أن صحت ذلك الصياح ، مضيت مسرعا الى غرفة عملي ، فجلست ودخنت سيجارة • فسمعت من هناك أصوات خروجها الى المدخل واستعدادها لترك البيت ، فسألتها : « الى أين تذهبين » ، فلم تجب • فقلت لها بيني وبين نفسي : « شيطان يشيلك » ثم عدت الى غرفة عملي ، فاستلقيت ، وأخذت أدخن من جديد • وخطرت ببالي ألف طريقة وطريقة للانتقام ، أو للتخلص منها ، أو لتسوية الأمر حتى كأنه لم يقع شيء • فكرت في هذا كله ، وكنت أدخن بلا انقطاع • راودتني فكرة ترك زوجتي ، والسفر الى أمريكا ، حتى لقد أخذت أحلم أنني بذلك أتخلص منها ، وأن هذا سيكون شيئا جميلا ، وأنني سأصاحب هنالك امرأة جميلة مختلفة عنها كل الاختلاف • وقلت لنفسي : أو أتحرر منها بالموت أو بالطلاق • وأخذت أفكر في السبيل الى تحقيق هذا • ثم لاحظت أن عقلي قد اضطرب ، وأنني لا أفكر فيما يجب أن أفكر فيه ، فأمعنت في التدخين

حتى تصبح نظرتي الى الأمور أوضح •

« غير أن الحياة في بيت من البيوت لا تقف • وهذه هي المربية تأتي فتسألني : « أين السيدة ، ومتى تعود ؟ » ، وهذا هو الخادم يسألني هل يجب تحضير الشاي • وذهبت الى قاعة الطعام • ان الأولاد ، وكبارهم خاصة ، وليزا بوجه أخص (ان ليزا أصبحت تفهم الأمور) ينظرون الي متسائلين مستنكرين • وأخذنا نشرب الشاي ، وفرغنا من تناول الشاي ، ولما تعد زوجتي • وانقضت السهرة كلها على هذه الحال • انها ليست معنا • وتنازعتني عاطفتان مختلفتان: أولاهما الحنق منها والكره لها بسبب هذه الآلام التي يولدها غيابها لنا ، أنا والأولاد ، وهي آلام ستنتهي بانتهاء غيابها على كل حال ، والثانية هي الخوف من أن لا تعود ومن أن تحدث لنفسها أذى • وشعرت أنني على استعداد لأن أمضي باحثا عنها • ولكن أين أبحث عنها ؟ عند أختها ؟ ألا انها لحماقة أن أذهب الى هناك وأن أسأل ، سامحها الله ! ، هل تريد أن تؤلمنا وهل تتألم هي نفسها • انها ، في حقيقة الأمر ، لا تنتظر غير هذا • واذا ذهبت ، فسيكون الأمر في المرة القادمة أدهى • ولكن ألا يمكن أن لا تكون عند أختها ؟ ألا يجوز أنها تريد أن تنتحر ، أو أنها انتحرت وانتهى الأمر ؟••• ودقت الساعة الحادية عشرة ••• وانتصف الليل ••• ولما تعد • لم أمض الى حجرة النوم • ان من الحماقة أن أبقى فيها وحدي ، أنتظر ولا أنام • وأردت أن أفعل شيئا ، أن أكتب رسالة ، أن أقرأ ••• ولكنني لم أستطع • وبقيت وحدي في حجرة عملي ، أتألم ، وأحنق • وأنتظر • ودقت الساعة الثالثة ، فالرابعة ••• ولما تعد • ونمت عند الفجر • فلما استيقظت كانت لا تزال غائبة •

« ان الحياة في البيت مستمرة على عادتها ، ولكن جميع من في البيت ينظرون الي نظرة سائلة عاتبة لائمة ، وفي ظنهم أنني السبب

في كل ما وقع • أما أنا فما يزال يتنازعني شعوران : ذلك البغض لها ، وذلك القلق عليها •

« وفي الساعة الحادية عشرة من الصباح وصلت أختها رسولا أو سفيرا • ودار الحديث الذي يدور في مثل هذه الأحوال : « ان حالتها فظيعة ، فما الذي حدث ؟ » • « لا شيء ، لم يحدث شيء البتة • » • وأجبت بأن طبع زوجتي طبع صعب ، وأنني لم أفعل شيئا قط • فقالت أختها : « ولكن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذه الحال • » قلت : « هذا شأنها ، لا شأني • لن أقوم أنا بالخطوة الأولى • فاذا شاءت الانفصال ، انفصلنا • »

« ومضت أخت زوجتي دون أن تنجح في المهمة التي جاءت من أجلها • لقد أظهرت كثيرا من قوة العزم حين قلت لها انني لن أقوم بالخطوة الأولى ، ولكن ما ان مضت فرأيت أطفالي على تلك الحالة من الأسى والخوف حتى تفطر قلبي فأحسست أنني مستعد للعدول عن قراري • انه ليسعدني أن أقوم بالخطوة الأولى ، ولكنني لا أعرف كيف • وأخذت أذهب وأجيء من جديد ، وأخذت أدخن ، وشربت عند الغداء فودكا وخمرا ، فوصلت الى ما أريد ، على غير شعور مني : أصبحت لا أرى ما في وضعي من حماقة وجبن •

« فلما حانت الساعة الثالثة وصلت زوجتي • ولم تقل شيئا حين لقيتني • فتخيلت أنها هدأت ، وأخذت أشرح لها كيف أن كلامهما كان تحديا لي • فما كان منها الا أن ظلت على قساوة وجهها وتعب مظهرها ، فقالت انها لم تجيء لتسمع شروحا ، بل جاءت لتأخذ الأولاد ، لأنها أصبحت لا تستطيع أن تعيش معي • فأجبتها بأن الذنب لم يكن ذنبي ، وأنها هي التي أخرجتني عن طوري وأفقدتني سيطرتي على نفسي • فنظرت الي نظرة قاسية فخمة ، ثم قالت : « لا تتكلم ، فانك ستندم على ما يمكن أن تقوله • » فأجبتها بأنني

أحتقر التمثيليات الهزلية ! فأخذت تصيح بكلام لم أفهمه ، وهرعت الى غرفتها • وسمعت صوت المفتاح يدور في القفل • لقد أقفلت الباب عليها • فأسرعت وراءها ، وطرقت الباب فلم تجب • فعدت حانقا مغتاظا • وبعد نصف ساعة جاءتني ليزا باكية • ماذا ؟ ما الذي حدث ؟ « أمي لا تجيب » • فذهبنا معا الى غرفتها ، ودفعت الباب بكل ما أوتيت من قوة ، وكان مزلاجه غير محكم الاغلاق ، فانفتح الباب على مصراعيه • اقتربت من السرير • ان زوجتي راقدة على السرير بثيابها وحذاءيها العاليين • وعلى كرسي قرب السرير ، رأيت زجاجة أفيون خالية • فأخذنا ننعشها الى أن استيقظت • وكانت دموع ثم كانت مصالحة • أو قل انها لم تكن مصالحة ، ذلك أنه قد بقي في نفس كل منا ذلك الحقد الذي يشعر به ،حتى لقد أضيف اليه الآن الحنق الذي ولده فيه ما سببته المشاجرة الأخيرة من أذى ينسبه كل منا الى الآخر • ولكن لابد من انهاء هذا الأمر على نحو من الانحاء ، واستمرت حياتنا على تلك الحال • فكانت تقوم بيننا مشاجرات كتلك المشاجرة ، بل أفدح منها ، كل أسبوع تارة ، وكل شهر أو كل يوم تارة أخرى • لم يختلف شيء • وفي ذات مرة طلبت جواز سفري الى الخارج ، فاستمرت المشاجرة يومين ، ثم تفاهمنا نصف تفاهم ، وتصالحنا نصف تصالح ، فلم أسافر •

٢١

على هذه الحال كانت علاقاتنا حين ظهر ذلك الرجل •وصل الى موسكو ـ واسمه تروها تشفسكي ـ وجاء الى بيتي يزورني • كان ذلك في الصباح • واستقبلته • كنا في الماضي نتخاطب بصيغة

الفرد • فحاول أن يعود الى صيغته هذه في حديثنا ذلك الصباح ، ولكنني صارحته منذ كلماتي الاولى أنني أحرص على صيغة الجمع فيما يدور بيننا من كلام • فلم يلبث أن استجاب لدعوتي • ولقد نفرت منه منذ اللحظة الاولى • ولكن الشيء الغريب أن قوة قاهرة جذبتني اليه ، شدتني اليه ، منعتني من رده ، من ابعاده ، بل حملتني على الاقتراب منه • كان يمكنني بسهولة أن أخاطبه بلهجة باردة ، وأن أودعه دون أن أقدمه الى زوجتي • ولكنني لم أفعل ذلك ، بل حدثته عن عزفه ، كأنما على قصد ، وذكرت له أن اشاعة تسري بين الناس مفادها أنه هجر الكمان • فأجاب بأن الاشاعة غير صحيحة، وأنه في هذه الايام يعزف أكثر مما كان يعزف في أي وقت مضى • وتذكر أنني كنت أعزف في الماضي • فقلت له انني انقطعت عن العزف ، وان زوجتي هي التي تجيد العزف كثيرا • شيء غريب ! ان علاقاتي به منذ اليوم الاول ، منذ الساعة الاولى ، كانت هي العلاقات التي لا يمكن أن تكون الا بعد كل الذي وقع • كان في علاقاتنا شيء من التوتر ، فكنت أرقب كل لفظ يقوله أحدنا ، وكل تعبير يستعمله ، وأضفي عليه شأنا وخطرا •

«وقدمت صاحبي الى امرأتي • فما لبثا أن تحدثا في شئون الموسيقى ، وعرض عليها أن يعزف معها • وكانت أمرأتي ، على شأنها في هذه الاوقا ت الاخيرة ، رشيقة جدا ، فاتنة جدا ، ذات جمال يحدث في النفس القلق • وكان واضحا انها أعجبته منذ اللحظة الاولى • وقد سرها ان تستطيع العزف بمصاحبة كمان ، وذلك أمر تحبه كثيرا ، حتى أنها أخذت تثني ثناء شديدا على الخدمات التي يمكن أن يؤديها في هذا المجال عازف من عازفي الاوبرا على الكمان ، وقد عبر وجهها عن فرحها الشديد بهذا العرض الذي قدمه لها صاحبي ، ولكنها ما ان نظرت الي حتى فهمت مشاعري ، فتغير تعبير وجهها ، وعندئذ قامت بيننا جميعا مسرحية أكاذيب متبادلة :

كنت أنا ابتسم ابتسامة رقيقة ، وأتظاهر بأنني مسرور أشد السرور.
وكان هو ، اذ ينظر الى امرأتي كما ينظر الى النساء الجميلات
جميع الرجال الذين لااخلاق لهم ، يتظاهر بأنه لايهتم الا بالحديث،
مع أن الحديث كان في حقيقة الامر لايعنيه في قليل ولا كثير. وكانت
هي تحاول أن تظهر بمظهر من لايحفل بالامر ، غير ان ما كان يظهر
في وجهي المتكلف الابتسام من آيات الغيرة ، وما كان يسدده اليها
تروها تشفكي من نظرات شبقة فاسقة ، كان يثير في نفسها اضطرابا
ظاهرا . ولقد رأيت عينيهما منذ هذا اللقاء الاول تلتمعان بوميض
خاص حتى لقد نشأ بينهما ، ربما بسبب غيرتي ، نوع من تيار
كهربائي ولد تشابها بينهما في النظرة ، والبسمات . كان اذا احمرت
احمر ، واذا ابتسمت ابتسم . وتحدثنا عن الموسيقى «وباريز» وعن
أمور تافهة . ونهض ليذهب ، مبتسما ، مسندا قبعته على خصره
المرتعش ، ونظر الي والى امرأتي ، كأنه ينتظر ما ستفعله . انني
أتذكر تلك الدقيقة خاصة ، لانني كنت استطيع في تلك اللحظة
أن لا أدعوه الى زيارتنا بعد الان ، ولو فعلت ذلك لما وقع شيء مما
وقع . ولكنني نظرت اليه ونظرت اليها ، وقلت له بيني وبين نفسي:
« لاتظنن أنني غيور أو أنني خائف منك » ، ودعوته أن يجيء الينا
بكمانه ليعزف مع زوجتي . فنظرت الي زوجتي دهشة ، واحمر
وجهها ، وكأنها خافت مني ، فارادت أن ترفض ذلك قائلة انها لاتجيد
العزف اجادة كافية . وأحنقني رفضها هذا ، فزدت في الالحاح . ما
أزال اتذكر الشعور الغريب الذي أحسست به وأنا أنظر الى سحرها
وعنقها الابيض الذي يتهدل عليه شعرها الاسود المفروق في وسطه،
وحين رأيتها تمشي متبخترة كأنها طائر . كنت لا أستطيع أن أخفي
عن نفسي أن وجود هذا الرجل يزعجني ويعذبني . فقلت لنفسي:
ان أمر انقطاعه عن المجيء الينا مرة أخرى رهن بي وحدي . ولكنني

ان منعته من المجيء كنت أعترف بأنني خائف منه • قلت « لا ، لا ، انني لست بخائف • ان خوفي منه ينزل قيمتي • » فألححت على صاحبي أن يعود ، حتى أنني حين صرنا في الممر الى باب البيت ، أصررت عليه ، لعلمي بأن امرأتي تسمع كلامي ، أن يعود في هذا المساء نفسه مع كمانه • فوعدني بذلك ومضى •

« فلما هبط المساء جاء متأبطا كمانه • وعزف مع زوجتي • لم ينجح العزف في أول الأمر ، لأن دفاتر الموسيقى كانت تعوزنا ، وكانت امرأتي لا تستطيع العزف بالدفاتر التي عندنا من غير تحضير • انني أحب الموسيقى كثيرا ، فساعدتهما في تهيئة المسند ، وكنت أقلب لزوجتي صفحات الدفتر • وعزفنا لا أدري أية أغنيات ، عزفاها صامتة بلا غناء ، وعزفا كذلك لحنا من ألحان موتسارت • كان هو يعزف عزفا رائعا • انه يملك ، الى أقصى درجة ، ما يسمى بالاحساس بالموسيقى • ثم أن له ذوقا مرهفا رفيعا لايتناسب مع خلقه •

« بديهي أنه كان في الموسيقى أقوى من زوجتي ، ولكنه أثنى على عزفها • انه يعرف كيف يتصرف • وكان يبدو على زوجتي أنها لاتحفل بغير الموسيقى ، فكانت في سلوكها بسيطة طبيعية • أما أنا فكنت أتظاهر بالاهتمام بالموسيقى ، ولكن الغيرة كانت تنهش قلبي طوال السهرة •

« ومنذ اللحظة التي التقت فيها عيناهما أدركت أن الحيوان الذي يختبيء فيهما ، رغم جميع مواضعات المجتمع الراقي ، قد طرح هذا السؤال : « هل يمكن ؟ » ، وكان الجواب : « طبعا يمكن ! » • وقدرأيت أن صاحبي كان لايتوقع أبدا أن يصادف في وزجتي ـ هذه السيدة من سيدات موسكو ـ امرأة تبلغ هذا المبلغ من الفتنة والاغراء ، فسره أنها كذلك • وكانت المشكلة

كلها تتلخص في وجود هذا الزوج الذي لا يطاق • لو قد كنت أنا رجلا طاهرا نقيا لما استطعت أن أدرك ذلك ، ولكنني كأكثر الرجال كنت من قبل أن أتزوج ، لا ارى في النساء رأيا غير هذا الرأي ، وهذا ما جعلني أقرأ في نفس صاحبي كما أقرأ في كتاب مفتوح • وقد فاقم ألمي انني كنت أرى رؤية واضحة أن العاطفة الوحيدة التي تحملها لي هي الحنق الدائم المتصل تقطعه الشهوة المعهودة من حين الى حين ، وأن هذا الرجل ، بما يمتاز به من أناقة ، وجدة ، وموهبة موسيقية ، وبما قام بينه وبينها من تواصل حميم يخلقه الاشتراك في العزف بتأثير الموسيقى ـ ولا سيما الكمان ـ في النفوس الحساسة ، قد أعجب زوجتي ولا شك ، بل أنه يستطيع ، دون أدنى ريب ، أن ينتصر عليها ، وأن يرميها بين قدميه ، وأن يصنع بها ما يشاء • كنت لا أستطيع الا أن أرى هذا كله ، فكنت أشعر بألم رهيب • ولكنني رغم هذا ، وربما بسبب هذا ، كنت مدفوعا بقوة مجهولة مخالفة لارادتي الى أن أكون معه مهذبا بل رقيق الحاشية • لا أدري أكان ذلك مني رغبة في أن أظهر لزوجتي أنني لا أخشاه ، أم كان مخادعة لنفسي عن حقيقة الأمر ، ولكن الذي أعرفه هو أنني منذ أول اتصال به لم أستطع أن أكون بسيطا معه • كان لابد لي ، حتى أخنق رغبتي في قتله فورا ، من أن أدلله • فسقيته اثناء تناول طعام العشاء خير ما عندي من خمور ، وأظهرت الحماسة لعزفه ، وحدثته والابتسام الرقيق على ثغري ، ودعوته أن يأتي يوم الاحد القادم فيتناول معنا طعام الغداء ويعزف مع زوجتي • وقلت له انني سأدعو بعض اصدقائي من هواة الموسيقى ليستمعوا الى عزفه • نعم ، هذا ما فعلته •

قال صاحبي بوزدنيشيف هذا الكلام ، وظهرت عليه علائم اضطراب شديد ، فغير وضعه ، وضحك ضحكته الساخرة • ثم

أردف يقول وهو يبذل جهدا ظاهرا لتهدئة نفسه :

– انني لأمتليء دهشة حين أتذكر كيف كان وجود هـــذا الرجل يؤثر في نفسي ذلك التأثير • في اليوم الثاني أو الثالث ، عدت الى البيت بعد زيارة أحد المعارض ، فما ان صرت في المدخل حتى شعرت بأن قلبي ثقيل كأن فيه صخرة ، ولم أفهم السبب في ذلك • لقد لمحت في الممر شيئا ذكرني بتروها تشفسكي • ولم أدرك ذلك الا حين وصلت الى حجرة عملي ، فعدت أدراجي لأتأكد من الأمر • نعم ، لم يخطيء ظني ••• انه معطفه • وهو ، كما تعلم ، معطف من آخر طراز ، من أحدث موضة (كنت ألاحظ بانتباه شديد كل ما يتصل به) • وسألت فعرفت أنه في البيت حقا • فمضيت الى القاعة الكبرى مارا بالحجرة المخصصة لدراسة الأطفال ، بدلا من المرور بالصالون • كانت ابنتي ليزا تقرأ كتابا ، وكانت المربية واقفة مع بنتنا الصغرى قرب المنضدة تدير غطاء ما • وكان باب القاعة مغلقا • سمعت نغمات مطردة ، وسمعت صوتهما يتحدثان فأصغيت • ولكنني لم أميز شيئا من كلامهما • قلت لنفسي : لا شك أن القصد من اصدار هذه النغمات هوأن تغطي أقوالهما ••• وربما قبلاتهما !••• يالالزوبعة التي عصفت عندئذ في نفسي ! حين أتذكر الوحش الذي كان يختبيء في ، يستبد بي ذعر • لقد تقبض قلبي فجأة ، وتوقف ، ثم أخـذ يخفق خفقانا شديدا • ان العاطفة الأساسية التي شعرت بها هي الاشفاق على نفسي ، شأني في ذلك شأن كل من يغضب • قلت بيني وبين نفسي : « أأمام الأطفال ، أأمام المربية ؟ » • ولا شك أن وجهي كان على حال فظيعة من الاضطراب ، فان ليزا قد نظرت الي عندئذ نظرة غريبة • تساءلت : « ماذا أصنع ؟ أأدخل ؟ انني لا أستطيع الدخول ••• لا يعلم الا الله ماذا يمكن أن أفعل لو دخلت • ولكنني لا أستطيع أن أمضي أيضا • » وكانت المربية تنظر الي نظرة من فهم

الوضع • « يستحيل أن لا أدخل » ، قلت ذلك لنفسي ثم فتحت الباب بسرعة • كان هو جالسا الى البيانو يصدر تلك النغمات المطردة بأصابعه البيضاء الملتوية • وكانت هي واقفة أمام دفاتر الموسيقى المفتوحة • وقد رأتني أو سمعتني قبل أن يراني هو ، فنظرت الي • أأخفت ذعرها أم أنها لم تشعر بذعر ؟ انها لم ترتعش ، ولكنها احمرت ، ولم يظهر احمرارها هذا الا بعد أن رأتني • قالت :-

ـ يسرني أنك جئت • اننا لم نقر ربعد ما الذي سنعزفه يوم الأحد •

قالت ذلك بلهجة ليست لهجتها حين نكون وحدنا • فأثارني ذلك ، وأثارني أنها تحدثت عن نفسها وعنه بقولها : « اننا ••• » •

وحييت الرجل صامتا ، فصافحني ، وقال لي ، وهو يبتسم ابتسامة خلتها سخرا ، انه جاء بدفاتر الموسيقى تهيؤا لحفلة يوم الأحد ، ولكنهما لم يتفقا بعد على الألحان التي سيعزفانها : هل يعزفان شيئا صعبا كلاسيكيا أم يعزفان سوناته بتهوفن على الكمان ،أم يعزفان معزوفات قصيرة ؟ قال ذلك كله على صورة طبيعية بسيطة لا يمكن أن أقول فيها شيئا ، ولكنني كنت مقتنعا بأن هذا كله كذب ، وبأنهما متفقان على خداعي •

« ان آلم شعور يحسه غيور (لاحظ أننا في حياتنا الاجتماعية غيورون جميعا) هو أن بعض ظروف حياة المجتمع الراقي تتيح قيام صلة صميمة خطرة بين رجل وامرأة • ان المرء يصبح أضحوكة في فم الناس اذا هو حاول أن يمنع تلك القرابات التي تنشأ في حفلات الرقص ، وتلك العلاقات التي تقوم بين الأطباء ومرضاهم ، وذلك التواصل الحميم الذي يقوم نتيجة للاهتمام بالفنون ، بالتصوير وبالموسيقى خاصة • ان الذين يهتمون معا بالموسيقى أرفع الفنون ، يرون أنه لا بد أن يقوم بينهم شيء من هذا التواصل الحميم الذي

ليس فيه ما يسيء ، وأنه ما من أحد غير الزوج الأحمق الغيور يمكن أن يرى في ذلك أمرا غير مستحب • ومع ذلك يعرف الناس جميعا أن أكثر الخيانات الزوجية التي تقترف في بيئتنا انما تقترف بفضل هذه التسليات ، وبفضل الموسيقى خاصة •

« كان واضحا أنهما انزعجا من الحالة التي كنت فيها • فانني ظللت لحظة طويلة لا أعرف ماذا أقول • كنت كزجاجة انقلبت فلم يخرج منها الماء لأنها ممتلئة كل الامتلاء • كنت أود لو أشتمه ، لو أطرده ، ولكنني شعرت أن علي أن أكون ، من جديد مهذبا رقيق الحاشية معه • وكذلك فعلت • فتظاهرت بأنني أؤيد كل ما يرى من أمر ، دفعتني الى ذلك تلك العاطفة نفسها التي تجبرني على أن أكون ألطف ما أكون في معاملته حين يكون ألمي أشد ما يكون من وجوده • قلت انني أدع أن يختار ما يشاء له ذوقه ، ونصحت لزوجتي بأن تفعل مثل ما فعلت • ومكث بعد ذلك الى أن تبـــدد الموقف المزعج الذي نشأ عن دخولي واضطراب وجهي • ثم مضى متظاهرا بأن كل شيء قد تقرر فيما يتعلق بالمعزوفات التي سيعزفانها في غد • وكنت مع ذلك على يقين تام من أنهما قد اهتما بشيء آخر غير هذا ، وأن اختيار المعزوفة التي سيعزفانها أمر ليس له عندهما قيمـة •

« وشيعته الى الباب في كثير من الأدب (انه يستحيل أن تفعل غير هذا مع رجل جاء يحمل الى بيتك الاضطراب ، ويهدم سعادة أسرتك) • وشددت على يده الناعمة البيضاء أصافحه في مودة •



« لم أكلـم زوجتي طوال ذلك اليوم ، كنت لا أستطيـع أن

أكلمها • وكان وجودها حولي يثير في نفسي كرها يبلغ من العنف أنه أخافني • وبينما كنا نتناول طعام الغداء ، سألتني أمام الأولاد عن اليوم الذي أعتزم فيه السفر ، ذلك أنني كنت أنوي الذهاب في الأسبوع التالي الى مؤتمر يعقد في مركز الاقليم • فذكرت لها اليوم الذي أعتزم فيه السفر • فسألتني هل أنا في حاجة الى شيء من أجل الرحلة • فلم أجبها • ولزمت الصمت حتى نهاية الغداء ، ثم انسحبت الى حجرة عملي دون أن أنبس بكلمة • وكانت زوجتي في هذه الأوقات الأخيرة لا توافيني في حجرتي أبدا ، ولاسيما في ساعة كهذه الساعة • فاستلقيت وأخذت أجتر مرارة نفسي • وفجأة سمعت وقع خطواتها المعروفة قادمة نحوي • فراودتني هذه الفكرة القطيعة الشيطانية ، وهي توافيني في هذه الساعة على غير عادتها لتحاول ، كما فعلت امرأة « أوري » أن تخفي الخطيئة التي قارفتها • قلت لنفسي وأنا أصغي الى اقتراب خطواتها : « هل يمكن أن تأتي الي ؟ لو جاءت الآن لكانت ظنوني في محلها • » • واستبد بنفسي كره لا أستطيع وصفه • وكانت خطواتها تزداد اقترابا • أتراها تمر أمام بابي لتمضي الى القاعة الكبرى ؟ لا • ها هو ذا باب غرفتي يصر ، وها هي ذي تظهر رشيقة جميلة ، عند العتبة • وقرأت في وجهها وفي عينيها معاني الخشية والعبودية التي تود لو تخفيها ، والتي أعرف دلالتها حق المعرفة • وكدت أختنق من فرط انحباس أنفاسي ، فما ان رأيتها حتى تناولت علبة سجائري وأشعلت سيجارة •

قالت وهي تحاول أن تجلس الى جانبي على الديوان وتستند الي :

ـ ليس من اللباقة في شيء أن آتي اليك فتأخذ تدخن •

فابتعدت عنها حتى لا ألمسها • فقالت :

ـ يخيل الي أنك مستاء من أني سأعزف يوم الاحد •

ـ أبدا .

ـ أتظن أن استياءك يخفى عني ؟

ـ أهنئك . ولست أرى الا شيئا واحدا هو أنك تسلكين سلوك امرأة مغناج تحب أن تغري الرجال ... والحق أنك امرأة يروق لها كل صغار أما أنا فذلك عندي شيء فظيع !

ـ ها ... اذا كنت ترشقني باهانات من تلك التي يتلفظ بها سائقو العربات ، فانني لن أبقى هنا .

ـ اذهبي . ولكن اعلمي أن شرف العائلة ان كان لا يعنيك ، فهو يعنيني . وهذا الشرف هو الشيء العزيز في نفسي ، لاأنت... أما أنت فاذهبي الى جهنم ...

ـ ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟

ـ اذهبي ... اذهبي .

لا أدري أتظاهرت بأنها لم تفهم ما قلت أم أنها لم تفهمه حقا ، ولكن الشيء الذي أعرفه أنها انزعجت ، وغضبت ، ووقفت في وسط الغرفة بدلا من أن تذهب . ثم قالت :

ـ الحق أنك أصبحت لا تطاق . ان طبعك لا يتحمله ملاك من الملائكة .

وعلى عادتها حين تريد أن تؤذيني أكبر ايذاء ممكن ، ذكرتني بسلوكي مع أختي (لقد سبق أن خرجت عن طوري ، فخاطبت أختي بكلام فظ غليظ) . ان زوجتي تعرف أن هذه الذكرى تؤلمني ، فبادرت الى تذكيري بها ، وقالت :

ـ بعد الذي صنعته بأختك لا أستغرب منك شيئا .

قلت لنفسي : « أتهينني وتهدر كرامتي وتلطخ شرفي بالعار ثم تريد بعد ذلك أن تلصق بي كل الأخطاء ؟ » وشعرت فجأة بكره لا عهد لي بمثله من قبل .

« لأول مرة اشتهيت أن أعبر عن كرهي بأفعال . فقفزت من مكاني ، وتقدمت نحوها . اني أتذكر الآن تذكرا كاملا أنني كنت واعيا كرهي في تلك اللحظة ، فتساءلت : هل يجمل بي أن أستسلم لهذا الانفعال ؟ ثم أجبت نفسي : نعم يجمل بي ذلك ، وستخاف . وما لبثت أن أوريت غضبي بدلا من أن أكظمه ، وسرني أني رأيته يزداد عنفا .

ـ اذهبي والا كان يمكن أن أقتلك !

هذا ما صحت به وأنا أقترب منها وأمسك ذراعها ، وأفاقم نبرة الكره في صوتي عن عمد . ولا شك أن منظري عندئذ كان رهيبا . فان زوجتي قد بلغت من الخوف أنها لم تقو حتى على الخروج ، فكانت لا تزيد على أن تردد قولها : « فاسيا ، ماذا دهاك ؟... ماذا هنالك ؟... » .

فصرخت بصوت أقوى :

ـ أخرجي ! أنت وحدك قد أوتيت القدرة على اغضابي هكذا . لست أنا المسئول .

سكرت من نشوة استسلامي لهذا الجنون ، وشعرت بحاجة الى أن أفعل شيئا خارقا ، لأظهر مدى ما بلغت من حنق .

استبدت بي رغبة مجنونة في أن أضربها ، في أن أقتلها ولكنني كنت أعرف أن هذا أمر تمنعه القوانين . ومع ذلك فانني من أجل أن أروي ظمأي الى الغضب ، تناولت من على المنضدة السكين الثقيلة التي أفتح بها الكتب ، فرميتها على الأرض قرب زوجتي وأنا أصرخ « اذهبي ! » . لقد أحكمت التسديد بحيث لا تبلغها السكين . فتقدمت لتخرج من الغرفة . وظللت طوال الوقت الذي كانت تستطيع خلاله أن تراني أزأر قليلا : « اذهبي اذهبي ! » حتى لقد تناولت أثناء ذلك من على منضدتي شمعدانا ومحبرة فرميتهما على

الارض • فلما خرجت توقفت عن ذلك فورا •

« وبعد ساعة جاءت المربية تقول ان سيدتها في نوبة عصبية • فمضيت اليها لأراها : كانت تبكي وتضحك ولا تقدر على الكلام وترتعش من قمة رأسها الى أخمص قدميها • انها لا تتظاهر بهذا كله تظاهرا ، فلقد كانت مريضة حقا •

« وهدأت عند الصباح ، فتصالحنا بتأثير هذه العاطفة التي كنا نسميها حبا • واعترفت لها بأنني أغار من تروها تشفسكي ، فلم تضطرب اي اضطراب ، بل ضحكت ضحكة طبيعية ، حتى لقد أظهرت أنها تستغرب أن تقبل امرأة أن يغريها رجل كهذا الرجل • وقالت : هل في وسع امرأة شريفة أن تشعر نحو هذا الرجل بغير الامتنان على ما تهيئه لها موسيقاه من متعة ؟ وأضافت تقول : وأنا مستعدة ، اذا شئت ، لأن لا أراه بعد اليوم أبدا ، وأن نلغي حفلة يوم الاحد ، رغم أن الدعوات قد وجهت جميعها • وما عليك من أجل ذلك الا أن تبلغ المدعوين أنني مريضة • غير أن في هذا الامر شيئا مزعجا ، وهو أن بعض الناس ، وخاصة هو ، يمكن أن يدور في خلدهم أنني أعده رجلا خطرا • وأنا امرأة أقوى اعتزازا بكبريائي من أن ينصرف ذهن أحد الى شيء من هذا •

« كانت لا تكذب ، وكانت تؤمن بما تقول : كانت تأمل أن توقظ في نفسها احتقار هذا الرجل بهذه الكلمات ، وأن تحمي نفسها من سلطانه عليها • ولكنها لم تظفر بذلك • كان كل شيء ضدها ، وخاصة هذه الموسيقى اللعينة •

وقف حديثنا عند هذا الحد • ووصل المدعوون يوم الاحد ، وعزفا من جديد معا •

٢٣

« من ناقل القول أن أذكر أنني كنت شديد حب الظهور • وبدون هذه الآفة في طبعي ، لا يكون ثمة مبرر لما وقع • لقد عنيت في ذلك الاحد بتنظيم العشاء واعداد السهرة الموسيقية ، فعلت ذلك مسرورا ، حتى لقد توليت بنفسي شراء أشياء كثيرة ، وأرسلت الدعوات •

« فلما حانت الساعة السادسة وصل المدعوون • وقد جاء تروها تشفسكي مرتديا الفراك ، وكانت الأزرار الماسية تزين أكمامه وتدل على كثير من رداءة الذوق • كان خفيف الحركة يفيض انطلاقا وسهولة ، وكان يجيب على أسئلتنا اجابات سريعة ، وقد بدت على وجهه علائم التأييد والتحبيذ والفهم • كان وجهه يعبر عن أن كل ما تقوله له هو بعينه ما كان ينتظر أن يسمعه •

لقد سرني جدا أن ألاحظ في تلك اللحظة كل ما كان في هذا الرجل من لبس ، لأن ذلك يبرهن لي على أنه أحقر من أن تنحط زوجتي الى مستواه • ولم يبق ثمة مجال للغيرة ، أولا لأنني كنت متعبا وكنت في حاجة الى راحة ، وثانيا لأنني كنت أريد أن أثق بزوجتي ، وقد وثقت بها • ومع ذلك ، رغم زوال كل غيرة ، لم أستطع أن أسلك سلوكا طبيعيا لا معه ولا معها ، وظللت طوال فترة العشاء وطوال الجزء الاول من السهرة ، أي الى أن أخذا يعزفان ، ظللت أراقب جميع حركاتهما ، بل وجميع نظراتهما • وكانت حفلة العشاء ، كسائر حفلات العشاء ، مملة ، مليئة بالنفاق • وما ان انتهينا من تناول الطعام حتى بدأ البرنامج الموسيقي • انني أتذكر الان تذكرا واضحا جميع تفاصيل تلك السهرة • ها هو ذا يأتي بكمانه ، يفتح صندوقها ، ويرفع مفرشها الذي طرزته له

سيدة من السيدات ، ويتناولها بيديه ، ويأخذ يدوزنها ، وها هي ذي امرأتي تجلس الى البيانو وهي تتظاهر بعدم الاهتمام ، وتخفي خجلها ، وتتشكك خاصة في معرفتها بالعزف . وسمعنا زقزقات الكمان وترتيب الأجزاء أول ما سمعنا .

وما زلت أتذكر كيف نظر كل منهما الى الآخر حين رأيا المدعوين يجلسون في أماكنهم ، وكيف تبادلا بضع كلمات . وبدأ العزف . أصدر تروها تشفسكي النغمات الأولى . ولاح وجهه جادا ، قاسيا ، محببا ، وأصغى الى الأصوات التي تخرج من آلته ، فأجرى أصابعه على الأوتار خفيفة في حذر . وأجابه البيانو . لقد بدأ العزف » .

روى بوزدنتشيف ذلك كله ، ثم توقف عن الكلام ، وأطلق ضحكته الساخرة . وأراد أن يستأنف حديثه ، ولكنه نشق مخاطه وتوقف مرة أخرى . ثم أردف يتم قصته . قال :

« لقد عزفا لحن كرويتزر ، لبتهوفن . هل تعرف مقطعه الأول ؟ أوه أوه أوه أوه ... انها لشيء فظيع ، هذه السوناته (قال ذلك صائحا) ... وخاصة ذلك الجزء منها . ان الموسيقى لشيء فظيع بوجه عام . ما هذا ؟ انني لا أفهم . ما هي الموسيقى ؟ ما الذي تصنعه بالانسان ؟ لماذا تؤثر فيه هذا التأثير ؟ يقول النـــاس ان الموسيقى تسمو بالنفس ... ألا أن هذا الكلام لكذب أن لهـا في النفس تأثيرا رهيبا ... انها لا تسمو بنفسي أنا ... والحق لا تسمو بالنفس ولا تهبط بها ، وانما هي تهيجها لا أكثر من ذلك ولا أقل . كيف أعبر لك عن فكرتي ؟ ان الموسيقى تجبرني على أن أنسى نفسي ، على أن أنسى حقيقة الوضع الذي أنا فيه ، وتنقلني الى عالم آخر . يتراءى لي ، بتأثير الموسيقى ، أنني أحس ما لا أحسه في الواقع ، وأفهم ما لاأفهمه ،وأقدر علىمالاأقدر عليه .أغلبظني

أن الموسيقى تؤثر مثلما يؤثر تثاؤب أو ضحك : يكون المرء في غير حاجة الى النوم ، فاذا تثاءب أحد أمامه تثاءب ، ولا يكون ثمة داع الى الضحك فاذا سمعت الناس من حولك يضحكون أخذت تضحك معهم • ان الموسيقى تنقلني الى الحالة النفسية التي عاناها المؤلف ، وتتحد روحي بروحه ، فاذا نحن نطوف معا من حالة الى حالـــة • لماذا ؟ لا أدري •

« ان بتهوفن الذي ألف سوناتة كروتيزر يعرف لماذا كان في تلك الحالة النفسية ، وقد أدت به تلك الحالة النفسية الى القيام ببعض الأعمال ، وكان لها عنده معنى ، أما أنا فلا يمكن أن يكون لها عندي دلالة • لذلك تهيجني الموسيقى دون أن تولد في نفسي ارتياحا بعينه • حين يعزف لحن عسكري يمشي الجنود مصطفين ، وتبلغ الموسيقى غايتها ، وحين يعزف لحن راقص ، يرقص الناس وتحقق الموسيقى هدفها ، وحين تغنى صلاة ، يصلي المؤمنون وتقوم الموسيقى بوظيفتها • أما أنا فلا شيء غير الاهتياج ، ولا يعرف المرء فيم يستعمل هذا الاهتياج ! لذلك كانت الموسيقى فظيعة كل الفظاعة، وكانت تفعل في النفس فعلا رهيبا في كثير من الاحيان • ان الموسيقى، في الصين ، من الأمور التي تشرف عليها الدولة •• وكذلك يجب أن تكون في كل مكان • كيف نسمح لكل من يشاء ، أن ينوم تنويما مغناطيسيا شخصا أو عدة أشخاص ليصنع به أو ليصنع بهم بعدئذ كل ما يشتهي ؟ وما قولك اذا كان المنوم رجلا تافها حقيرا قدم اليك عرضا ؟

« يا لها من أيدتلك الايدي التي تمسك بهذه الوسيلةالمخيفة! أنظر ، على سبيل المثال : هذا المقطع الاول من سوناتة كرويتزر ، هل يمكن عزفه في صالون بين سيدات عاريات النحور يسمعن العزف فيصفقن له ثم يمضين يأكلن المرطبات وهن يثرثرن فيما هب ودب

ان لحناً كهذا اللحن لا ينبغي أن يعزف الا في بعض الظروف المهيبة الفخمة الهامة ، أو حين يجب القيام بأعمال تناسب تلك الموسيقى • يجب أن تسمع هذه الموسيقى ثم تنهض للقيام بالاعمال التي أوحت بها اليك • أما اثارة النشاط اثارة لا تتناسب مع المكان الذي أنت فيه ومع الزمان الذي أنت فيه ، أما اهاجة عواطف لا يمكن أن تجد سبيلها الى الظهور في أفعال ، فذلك يؤذي ايذاء شديدا • مهما يكن من أمر فقد كان لتلك السوناتة في نفسي أنا تأثير مخيف : فلقد خيل الي أنني اكتشف عالما من العواطف والامكانات الجديدة كنت أجهلها الى ذلك الحين • لقد سمعت صوتا يهتف بي من أعماقي بقوله : نعم ، هكذا يجب أن تعيش ، لا كما كنت تظن من قبل ، أما ما هو ذلك الشيء الجديد ، فانني لم أدركه في أول الأمر ، ولكن مجرد احساسي به قد بث في قلبي فرحا كبيرا • وأصبحت أرى الحاضرين ، ومن بينهم هو وزوجتي ، رؤية جديدة •

« فلما فرغا من عزف ذلك المقطع ، عزفا مقطعا آخر جميلا ، ولكنه لا يشتمل على شيء خاص ، ولا هو جديد كثيرا حتى لقد كانت تبدلاته مبذولة ، ثم عزفا الخاتمة التي وجدتها ضعيفة جدا والحق يقال • وعزفا بعد ذلك ، استجابة لطلب المدعوين ، مرثية لارنست ، وقطعا أخرى صغيرة • وكان ذلك كله جميلا ، غير أنه لم يحدث في نفسي عشر معشار التأثير الذي أحدثه فيها مطلع السوناتة • لقد كان ذلك التأثير يسيطر في روحي على كل شيء •

« وظللت السهرة كلها أحس بنفسي خفيفا مرحا • انني لم أر زوجتي في حياتي كما رأيتها ذلك المساء • كانت عيناها أثناء العزف متقدتين ، وكان في وجهها قسوة ما لبثت أن استحالت حين توقف العزف الى حياء فاتن ، وابتسامة عذبة خجلى سعيدة • رأيت ذلك كله ، ولكنني لم أحمله من المعنى غير احساسها بتلك المشاعر الجديدة

التي شعرت بها أنا ازاء هذه الموسيقى • وانتهت السهرة بلا أحداث مزعجة ومضى ضيوفنا الى بيوتهم •

« وكان تروها تشفسكي يعلم أنني مسافر بعد يومين للاشتراك في المؤتمر ، فقال وهو يستأذننا بالانصراف انه يأمل أن يسعد باحياء سهرة موسيقية أخرى في بيتنا متى عاد الى موسكو في رحلة أخرى • واستنتجت من كلماته هذه أنه لا يرى أن من اللائق أن يجيء الى بيتي أثناء غيابي فسرني ذلك منه •

« واستنتجت من كلماته أيضا أنني لن أعود من رحلتي الا بعد سفره ، وأنني لن ألقاه اذن •

« فرأيتني ، لأول مرة ، أصافحه بسرور ظاهر لا أخفيه ، وأشكر له زيارته هذه التي سعدنا بها • وبدا لي وداعهما بسيطا طبيعيا الى أبعد الحدود • وكان كل شيء يجري اذن على خير حال • وسررنا بهذه السهرة سرورا عظيما • »

٢٤

ـ وودعت زوجتي بعد يومين ، وسافرت هادىء البال سعيدا •
وهناك ، في المؤتمر ، يعمل المرء كثيرا ، ويعيش حياة خاصة جدا في عالم صغير مختلف عن عالمه • فكنت خلال يومين أعمل في المكتب عشر ساعات في النهار • وفي اليوم الثاني ، جيء لي برسالة من زوجتي •

« انها تحدثني عن أطفالنا ، وعن العم ، وعن المربية ، وعن أشياء اشترتها ، ثم تقول لي ان تروها تشفسكي قد جاء اليها يحمل معزوفات جديدة ، واقترح عليها أن يعزفا مرة أخرى ، ولكنهـــا رفضت ، قالت ذلك كأنه أمر طبيعي جدا لا غرابة فيه •

« لم أتذكر أنه كان قد وعدها بأن يجيئها بموسيقى جديدة • وتراءى لي أنه قد ودعها وداعا أخيرا • فدهشت مما ذكرته دهشة مزعجة • غير أن أعمالي كانت من الكثرة بحيث لم يتسع وقتي للتفكير في هذا الأمر كله ، ولم أعد قراءة الرسالة الى حين رجعت الى حجرتي في المساء •

« فوجدت أن لهجة الرسالة غير طبيعية ، عدا أن تروها تشفسكي قد زار زوجتي • فأحسست أن وحشا مفترسا قد همهم في نفسي من شدة الغيرة ، وأراد أن يخرج ، ولكنني خفت منه ، فما لبثت أن كبحت جماحه • قلت لنفسي : « ما أبشع هذه الغيرة من عاطفة ؟ هل ثمة شيء أقرب الى البساطة والانطلاق الطبيعي من هذا الذي كتبه زوجتي ؟

« واستلقيت على سريري ، وأخذت أفكر في الأعمال التي تنتظرني في الغداة • وكان من عادتي أن يصعب علي النوم حين أنتقل من بيتي ، ولكنني في هذه المرة ما لبثت أن غططت في نوم عميق • واني لفي ذلك النوم العميق ، اذا بي استيقظ فجأة ، كأن تيارا كهربائيا قد مسني ، كما يحدث ذلك أحيانا ، فانتفضت من على سريري مفكرا في زوجتي ، وفي حبي الشهواني لها ، وفي تروها تشفسكي ، متخيلا أن كل شيء قد تم بينهما وانتهى الامر • يا لهول الحنق الذي حطم قلبي في تلك اللحظة ! وحاولت أن أهدئ نفسي ، وأن أردها الى العقل والصواب ، فقلت : هذا هراء ، ولا داعي الى القلق ، فما حدث شيء ولن يحدث شيء ، ولا يحق لي أن أحقر نفسي وأن أحقر زوجتي بهذه الظنون ! ما هو الا عازف على الكمان عرف بين الناس بسوء السمعة ، ولا يعقل أن تقدم سيدة محترمة ، لا يعقل أن تقدم ربة أسرة محترمة على ••• هذا سخف • ولكنني ما لبثت أن هتف من جهة أخرى

أقول : ولكن كيف يمكن أن يكون الأمر غير هذا ... ان الشيء البسيط الطبيعي الذي من أجله تزوجت ، ومن أجله عشت مع امرأتي ، هذا الشيء الذي كان ضرورة لي كما هو ضرورة لسائر الرجال ، هو بعينه ما يقود خطوات هذا الموسيقي . انه عازب ، قوي البنية ، جيد الصحة (انني أتذكر كيف كان أثناء العشاء يقضم غضروف الضلع قضما ، وكيف كان يلتهم قدح الخمر التهاما شرها)، بدين ، يأكل جيد الطعام ، وليس هو بالرجل الذي لا مبادىء له فحسب ، بل هو أيضا انسان جعل قانون حياته أن ينتهز جميع الفرص وأن يتمتع بجميع ما يتاح له التمتع به من ملذات . وقد قامت بينه وبين زوجتي تلك الصلة التي خلقتها الموسيقى ، وهي من أرهف العواطف اللذيذة ، فما الذي يمكن أن يمنعه ؟ لا شيء يمكن أن يمنعه ، بل كل شيء يدفعه ويجذبه . وهي ؟ من هي ؟ انها سر مستغلق ، كما كانت كذلك دائما . انني لا أعرفها . انني لا أعرف منها الا الجانب الحيواني . وأي شيء يمكن أو يجب أن يمنع الحيوان ...

« في تلك اللحظة ، انما تذكرت وجهيهما أثناء السهرة ، حين عزفا ، بعد سوناتة كرويتزر ، قطعة قصيرة لا أذكر اسم مؤلفها ، ولكنها كانت شهوانية الى أبعد الحدود . قلت لنفسي وأنا أرى ما كان في وجهيهما من معان : كيف أمكنك أن تسافر ! ألم يكن واضحا أنهما اتفقا على كل شيء يمكن أن يفرق بينهما بعد الآن ، وأنهما كانا يشعران كلاهما ، وخاصة هي ، بشيء من الحرج بعد كل ما وقع بينهما ؟ تذكرت بسمتها العذبة ، الخجلى ، السعيدة ، وتذكرت احمرار وجهها الذي كانت تمسح عرقه بمنديلها وهي تقترب من البيانو . كانا منذ تلك اللحظة يتحاشيان أن ينظر أحدهما الى الآخر ولم يجرؤا الا أثناء العشاء ، بينما كانت تصب له الشراب،

على أن يتبادلا النظرة ، وأن يبتسم كل منها للآخر ابتسامة يسيرة لا تلاحظ • نعم ، لقد انتهى كل شيء • هذا ما هتف به لي صوت • ولكن صوتا آخر ما لبث أن هتف لي يقول نقيض ذلك ، يقول : ماذا دهاك ؟ ذلك مستحيل ! » • وأزعجني أن أبقى في الظلام ، فأوقدت شمعة ، وأخذ الخوف يستبد بي ، في هذه الغرفةالصغيرة المفروشة ببساط أصفر • وأشعلت سيجارة فدخنتها ، وأتبعتها بسيجارة أخرى ، ثم بسيجارة ثالثة ، وهكذا دواليك ، كما يتفق للمرء دائما حين يصارع اشكالا لا يعرف كيف يخرج منه ،وذلك حتى يطيش صوابه ، فما يدرك التناقضات التي في عقله •

« وظللت الليلة كلها لا أعرف الى النوم سبيلا ، حتى اذا دقت الساعة الخامسة ، قررت انني لا أطيق احتمال هـذه الحالة من البلبلة والتشوش وتوتر الفكر ، وهيأت نفسي للسفر ، فنهضت وأيقظت البواب الذي كان يخدمني ، وأرسلته يبحث لي عن خيل• وكتبت كلمة للمؤتمر ذكرت فيها أنني استدعيت الى موسكو على جناح السرعة لأمر مستعجل ، ورجوت أن ينوب عني في حضور جلساته عضو آخر من أعضائنا • وما جاءت الساعة الثامنـة حتى كنت في طريقي الى موسكو •

٢٥

دخل مفتش القطار ، فلاحظ أن شمعة مصباحنا توشك على الانتهاء ، فأطفأها دون أن يضع شمعة أخرى في مكانها • وطلع الفجـر • صمت بوزدنيشيف ، وزفر زفرات عميقـة • ثم لم يستأنف رواية قصته الا بعد أن ذهب المفتش ، وأصبحنا في شبه ظلمة ، وأصبحنا لا نسمع الا تراطم زجاج القطار المارق مروق

السهم ، والا شخير البائع يتردد رتيبا على وتيرة واحدة • كنت لا أتبينه في ذلك الضوء الخافت ، ضوء الفجر • وانما كنت اسمع صوته ، فأدرك أنه يزداد اضطرابا شيئا بعد شيء ، وانه يعاني ألما شديدا ، قال :

« كان علي أن أقطع خمسة وثلاثين فرسخا بالعربة ، وثماني ساعات بالقطار • وكانت رحلتي بالعربة رائعة • كان ذلك في يوم بارد من أيام الخريف ، ولكن الشمس كانت ساطعة • عجلات العربة تخلف في جليد الطريق أخاديد جميلة ، والارض ناعمة ، والنور ساطع ، والهواء منعش • لقد أحسنت الي هذه النزهة بالعربة • فما أن مضت بي حتى شعرت بتحسن في حالتي • فكنت أنظر الى الخيل ، وأسرح طرفي في الحقول ، وأتأمل الناس الذين أصادفهم ، فأنسى الى أين كنت ذاهبا • حتى لقد خيل الي في بعض اللحظات أنني مسافر لا لسبب يدفعني الى السفر دفعا ، بل للاستمتاع بلذة السفر • وكنت في نشوة من ذهولي عن نفسي هذا الذهول • وكنت اذا تذكرت عرضا الى أين أنا ذاهب أقول لنفسي : « دعك من التفكير في هذا الان ، وسيتضح كل شيء فيما بعد • » وفي منتصف الطريق وقع لي حادث صغير أخرني بعض التأخير ، وأتاح لي سلوى جديدة • لقد انكسرت العربة ، فكان لابد من اصلاحها لاستئناف المسير • وكان لهذا الحادث شأن كبير ، لانه جعلني لا أصل الى موسكو الا في منتصف الليل ، ولا أصل الى البيت الا في الواحدة من الصباح ، في حين أنني كنت سأصل في الساعة الخامسة ، لقد تأخرت عن القطار السريع ، فاضطررت أن أسافر على قطار الركاب • وكان في وصول عربة النجدة ، واصلاح المركبة ، ودفع الاجرة ، واحتساء الشاي في المضافة ، والحديث مع صاحبها ، كان في كل ذلك مزيد من السلوى أنساني نفسي ،

فلما هبط المساء كان كل شيء قد هيء ، فاستأنفنا المسير • والحق أن الرحلة في الليل كانت أعظم متعة أيضا • القمر في ربعه الاول ، والجو بارد ، والطريق جميلة ، والخيل من أجود الخيل ، والحوذي مرح • تمتعت بهذا كله ، وأنا لا أكاد أفكر فيما ينتظرني ، أو لعلني تمتعت به هـذا التمتع كله لأنني كنت أدرك مصيري فأودع جميع مباهج الحياة • ولكن كل ماكنت أحسه من هدوء ومن سيطرة على عواطفي انتهى بانتهاء السفر على العربة • فما أن دخلت القطار حتى أصبحت اشعر بشيء آخر مختلف عما كنت أشعر به كـل الاختلاف • ان الساعات الثماني التي قضيتها في القطار قد خلفت في نفسي أثرا طبيعا لن أنساه ما حييت • لا أدري هل يرجع ذلك الى أنني حين جلست في القطار تخيلت أنني وصلت ، أم هو يرجع الى أن السفر بالقطار يهيج اعصاب المسافرين ، ولكنني أعرف أنني مذ جلست على مقعدي في القطار أصبحت لا أستطيع أن أكبح جماح خيالي ، فكان يرسم لي صورا واضحة الى أبعد حـدود الوضوح ، صورا تؤجج نار الغيرة في نفسي ، صورا قبيحة تدور كلها على موضوع واحد بعينه : ما يقع هناك ، في منزلي ، ما يتم من خيانة أثناء غيابي • فكنت احترق ألما وحنقا وكرها ، وكنت كالسكران من طيش صوابي • كنت لا أستطيع أن أطرد هـذه اللوحات الفظيعة ، بل وان استدعيها الى خاطري • والافدح من ذلك أنني كنت كلما تأملت هذه الصور التي ينشئها خيالي أزداد ايمانا بأنها واقعة • كان وضوح ظهور هذه الاخيلـة العجيبـة في ذهني بمثابة دليل لي على أنها واقعة • كان هناك شيطان يوحي الي بفروض وظنون مجنونة ، على رغم ارادتي • وتذكرت حديثا قام بيني وبين أحد أخوي تروها تشفسكي في الزمان الماضي ، فأفرحني فرحا عجيبا أن أمزق قلبي بتطبيق ذلك الحديث على تروهاتشفسكي وزوجتي •

« لقد دار ذلك الحديث بيني وبين أخيه منذ مدة طويلة ، ولكنني تذكرته عندئذ واضحا . لقد سألت أخاه في ذلك الوقت هل هو يرتاد بيوت الدعارة ، فأجابني بقوله : ان الرجل الشريف لا يحتاج الى ارتياد تلك البيوت التي قد يصاب فيها بمرض ، والتي هي شيء قذر يبعث على الاشمئزاز ، ولكنه يستطيع بسهولة أن يجد امرأة مناسبة . ها هو ذا أخوه قد وجد زوجتي اذن ! وقلت في نفسي : صحيح ان زوجتي ليست في ريعان الصبا ، وأنها فقدت أسنانها ، وأنها ترهلت قليلا ، ولكن على المرء أن يستفيد مما يعثر عليه ... نعم ، انه يستطيع أن يتنازل فيهبط اليها ، ويتخذ منها خليلة الى حين ... ثم انها لا خطر منها على صحته الغالية !... قلت ذلك بيني وبين نفسي ، ثم ما لبثت أن هتفت وقد استبد بي الذعر : لا ، لا ، ان هذا مستحيل . لا شيء من هذا يمكن أن يقع، بل ليس ثمة ما يدعو الى مثل هذه الظنون البتة . ألم تقل هي نفسها انها تشعر بالاهانة حين تتصور تصورا أنني يمكن أن أغار منه ؟ نعم ، ولكنها كاذبة . انها . هذا ما صحت به . وعاد عذابي ...

« لم يكن في العربة التي كنت فيها من القطار الا مسافران ، امرأة عجوز وزوجها . وكانا صامتين كلاهما . وقد نزلا عند احدى المحطات ، فبقيت وحدي . كنت أشبه بوحش مفترس حبس في قفص . ونهضت فجأة ، واقتربت من النافذة . كنت أمشي مهتزا ، كأنني أحاول أن أدفع القطار الى مزيد من السرعة . وكانت العربة بما فيها من مقاعد وزجاج ، تقرقع مثلما تقرقع الان .

نهض بوزدنيشيف ، وخطا بضع خطوات ، ثم عاد فجلس .

« آه ... انني أخاف ، انني أخاف من عربات القطار . انها ترعبني . انها فظيعة . قلت لنفسي : فكر في شيء آخر . فكر مثلا في تلك المضافة التي شربت فيها الشاي . ولكنني ما ان فكرت في

المضافة حتى تصورت صاحبها ذا اللحية وحفيده الذي هو في عمر ابني فاسيا . مسكين ابني فاسيا . انه سيرى الموسيقي وهو يقبل أمه. ما الذي سيدور في نفسه الشقية حين يرى هذا المشهد ؟ انها ، هي ، لا تعبأ بهذا ، وليس له عندها قيمة ! هكذا كنت أعود الى التفكير في ذلك الموضوع نفسه . لا ، لا سأفكر في زيارة للمستشفى . أمس شكى أحد المرضى من الطبيب . ولكن الطبيب له شاربـــان بشبهان شاربي تروها تشفسكي . يا لتلك الوقاحة في كذبهما علي ، حين زعم لي أنه سافر . هاءنا ذا أعود الى التفكير في الموضوع نفسه !... ان كل ما كنت أفكر فيه كان يذكرني بتروها تشفسكي. وكنت أعاني ألما فظيعا . ان السبب الاساسي في هذا كله هو أنني أجهل وأشك ، ولا أستطيع أن أعرف هل يجب أن أحب زوجتي أم يجب أن أكرهها . وبلغت من فرط العذاب ان انبثق في ذهني فكرة طربت لها طربا كبيرا ، وهي أن أخرج من القطار ، وأن أتمدد على سكته ، فأتخلص من الحياة . انني بذلك أتحرر من الشكوك على الاقل . ولم يخيفني من تنفيذ هذه الفكرة إلا أنني أشفقت على نفسي اشفاقا كبيرا ، ورثيت لحالي كثيرا ، وأعقب ذلك كره وحشي مفترس شعرت به نحو زوجتي . كان شعوري نحوه ، هو ، عاطفة غريبة هي العداوة ممزوجة بالاحساس باخفاقي وانتصاره . أما شعوري نحوها هي فقد كان هو الكره ولا شيء غير الكره . قلت لنفسي : لا يمكن أن أنتحر ، وأن أدعها هكذا ، يجب أن تتألم قليلا لتعرف ما عانيت أنا من ألم .

« وكنت أنزل في جميع المحطات ، نشدانا للسلوى . فرأيت في مقصف احداها اناسايشربون ، فما لبثت أن بلعت عـــددا مـــن أقداح الفودكا . وكان الى جانبي رجل يهودي يشرب ، فقام بيني وبينه حديث ، ثم صحبته الى العربة التي كان فيها من القطار ،

حتى لا أبقى في عربتي وحيدا • كان هو في الدرجة الثالثة ، وكانت حجرته قذرة ، ملأى بالدخان ، والنفايات • جلست الى جانبه ، فثرثر كثيرا ، وقص علي نوادر وفكاهات • فكنت أصغي اليه ، ولكنني لا أفهم شيئا مما يقول ، لانني كنت غارقا في أفكاري • فلاحظ هو ذلك ، فأراد أن يشداليه انتباهي ، فنهضت وعدت الى حجرتي • قلت لنفسي : فكر في الامر أيها الرجل ، هل هذا الذي يشغل بالك أمر معقول ؟•• هل هناك مبرر لهذا العذاب الذي تسببه لنفسك ؟• وجلست حتى أفكر على هون وراحة ، ولكنني ما لبثت أن عدت الى ما كنت فيه ، بدلا من تقليب الامر على وجوهه في هدوء ، فاذا اللوحات التي ينشئها خيالي تحل محل التفكير السليم• قلت لنفسي : ما أكثر ما تألمت أيها الرجل مثلما تتألم الان (تذكرت نوبات الغيرة التي تملكتني في الماضي) ، ثم ثبت لك أن غيرتك لم تكن في محلها • ثق أنك ستجدها الليلة نائمة في سريرها نوما هادئا ، وسيسعدها أن تستيقظ فتراك أمامها ، وستحس من كلماتها ونظراتها ان شيئا لم يقع ، وأن كل ما خامرك من ظنون كان سخيفا !••• ولكن لا ••• ان ما حدث في الماضي غير ما يحدث الان • هكذا هتف بي هاتف من أعماق نفسي ، وزادت حالتي غليانا • نعم ، انه لعذاب شديد • لو أردت أن أقزز شابا من النساء الى الابد ، لما أريته مشهد مرضى مصابين بالزهري في مستشفى من المستشفيات ، بل لكشفت له عن نفسي عارية حتى يرى الشياطين التي تمزقها تمزيقا • وأفدح ما في الامر أنني كنت أعد نفسي صاحب حق في جسدها كأنه جسدي أنا ، وكنت أحس رغم ذلك أنني لا أملكه ، وأنها تستطيع أن تتصرف فيه كما يشاء لها هواها ، وأنها تريد أن تتصرف فيه على غير ما أريد ، وأنني لا أستطيع أن أفعل شيئا في حقها ولا في حق صاحبها •

« انه ليستطيع أن يغني أمام المشنقة،مثلما فعل فانكا لمتشينك(١)، أغنية يشيد فيها بمغامراته وقبلاته • وهو المنتصر عندئذ • واذا كنت عاجزا ازاءه ، فانني ازاءها لأعجز • واذا ثبت انها لم تفعل شيئا بعد ، وانما هي تنوي أن تفعل شيئا ، فان ذلك أنكى • الحق أنني كنت لا أعرف ماذا أريد • كنت أريد أن لا تتمنى ما كان ينبغي أن تتمناه • كنت في حالة من حالات الجنون •

٢٦

ـ فلما أقبل المفتش ، قبل الوصول الى المحطة الاخيرة ، يجمع التذاكر ، هيأت أشيائي وخرجت الى الفسحة • ان شعوري بأن اللحظة الحاسمة تقترب قد فاقم اضطرابي • وشعرت ببرد يسري في جسمي ، وأخذت أسناني تصطك • فلما وقف القطار نزلت مع النازلين على غير شعور ، واستأجرت عربة ، ومضيت ، كنت أنظر الى المارة القلائل ، والى حراس الليل ، والى الظلال التي تلقيها المصابيح وتلقيها عربتي من خلف تارة ومن قدام تارة أخرى ، كنت أنظر الى ذلك كله دون أن أفكر في شيء •

فلما اجتزت هذه المحال نصف كيلو متر ، أحسست بصقيع في قدمي ، فتذكرت أنني قد خلعت جوارب الصوف في القطـــار ووضعته في الكيس • أين الكيس ؟ هو ذا • وأين السلة ؟ هنـا تذكرت أنني نسيت أن أستلم حقائبي ، ولكنني وقد رأيت أنني أحمل قسيمتها قررت أن لا أعود لاخذها وتابعت طريقي •

« انني أحاول أن أتذكر الآن الحالة النفسية التي كنت فيها

---

(١)شخصية أقصوصة روسية (المترجم)

عندئذ ، فلا أستطيع • لا أعرف الان ما الذي كنت أفكر فيه ، وما الذي كنت أريده • ولكنني أتذكر أنني كنت أحس أن أمرا رهيبا سيقع ، أمرا خطيرا كل الخطورة في حياتي ••• هل وقع هذا الامر لأنني كنت أفكر فيه ، وأوجسه ؟ لا أدري ! ليس من المستبعد على كل حال ان الدقائق التي سبقت ما تلاها من حوادث قد استمدت من هذه الحوادث ألوانا قاتمة • اقتربت من عتبة بيتنا • كان الليل قد جاوز نصفه بضع دقائق • وهناك في الطريق عربات تنتظر عسى أن تعثر على زبون • القاعة والصالون من بيتي مضاءان يخرج من نوافذهما نور •

لم أتساءل لماذا يظل النور في بيتي مشتعلا الى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ولكنني كنت أتوقع شيئا رهيبا ، فصعدت السلم ، وقرعت الجرس • ففتح لي الباب ايجور ، خادمنا الطيب النشيط الغبي • ان أول شيء خطف بصري في الممر معطف معلق الى جانب ملابس أخرى • كان ينبغي أن أدهش ، ولكنني لم أدهش لانني كنت أتوقع ذلك • قلت لنفسي : نعم ، صدق ظني • وسألت ايجور ، فقال ان تروها تشفسكي هنا • وسألته هل هناك أحد غيره أيضا ، فأجاب : لا • ما زلت أتذكر نبرة صوته • لكأنه كان يريد أن يبهجني وأن يبدد شكوكي • قلت لنفسي مرددا : نعم ••• نعم ••• وأين الاولاد ؟ انهم نائمون ، وهم بحمد الله في صحة جيدة •

« أختنقت أنفـــاسي ، وكنت لا أستطيع أن أقف اصطكاك أسناني •

« الأمر يختلف اذن عما كان يقع في الماضي • كنت أتخيل دائما أن كارثة ستحل ، ثم لا تحل الكارثة • أما الان فالأمـــر مختلف كل الاختلاف • ان ما تخيلته هذه المرة ، وما فكرت فيه ، يتحقق كله •

« وأوشكت أن أنفجر باكيا شاهقا ، ولكن الشيطان هتف بي يقول : « ابك أيها المسكين ، رقق قلبك أيها المسكين ، وفي أثناء ذلك يكونان قد انفصلا على هون وهدوء ، فلا يبقى لك أي برهان على ما وقع بينهما ، ثم تعيش حياتك كلها في شك وعذاب . » فما ان سمعت هذا الكلام يهتف لي به الشيطان ، حتى زال حزني فجأة ، وتملكتني عاطفة عجيبة لن تستطيع أن تفهمها ، هي الفرح .. نعم لقد افرحني أن عذابي سينتهي بعد قليل ، أنني أستطيع الان أن أعاقب زوجتي ، أن أتخلص منها ، أن أطلق العنان للبغضاء . وهذا ما فعلته ، فأصبحت وحشا خبيثا ماكرا .

« قلت لايجور الذي كان يريد أن يذهب الى الصالون: لا ، لا ، بل خذ عربة ، وامض ... هذه قسيمة حقائبي ، فاذهب الى المحطة ، وائتني بها . هيا !.. »

« فاجتاز ايجور الممر ليأخذ معطفه ، فخفت أن يذهب اليهما لينبههما الى انني وصلت ، فمشيت وراءه الى حجرته ، وظللت انتظره على بابها حتى ارتدى ملابسه . انني اسمع اصوات كلام آتية من الصالون ، وقرقعة سكاكين وأطباق . انهما يأكلان ، ولم يسمعا صوت جرس الباب حين قرعته .

« قلت في نفسي : أخشى أن يخرجا حالا . وارتدي ايجور معطفه ذا الياقة المصنوعة من فراء الاستراكان . فأخرجته ، وأغلقت الباب وراء . انني الآن وحدي ، وعلي أن أباشر العمل . شعرت من ذلك بانزعاج ، لم أعرف لماذا شعرت بذلك الانزعاج . ولكنني كنت أعرف أن كل شيء قد انتهى ، وأن اقترافها للجريمة أمر لاشك فيه ، وأنني سأعاقبها ، وأقطع كل علاقة بها .

« كنت أستطيع قبل ذلك أن أشك ، وأن أقول لنفسي :لعلك مخطيء يا هذا ، وقد تكون تصوراتك كلها باطلة . أما الآن فلم يبق

محل للشك • لقد تم كل شيء ، ما في ذلك ريب • سرا ••••
وحدها معه ••• في جنح الليل • لقد نسيت بهذا كل شيء نسيانا
تاما • انها لجرأة عجيبة في اقتراف الجريمة ، انها لوقاحة ما بعدها
وقاحة • لم يبق من شك ••• كنت لا أخشى الا شيئا واحدا ، هو
أن ينفصلا ، وأن يلفقا أكـــذوبة جديدة ، فيحرماني من امكان
مفاجأتهما متلبسين بالجرم • ومن أجل ذلك ، من أجل أن أوافيهما
بأقصى سرعة ، اتجهت الى القاعة التي كانا فيها أسير على رؤوس
الاصابع ، ولكنني سرت نحو القاعة عن طريق الممر وغرف الاطفال
بدلا من الصالون • كان الابناء من أولادي ينامون في الغرفـــة
الاولى • وكانت المربية تنام في الغرفة الثانية ، فلما دخلت تحركت
وأرادت أن تستيقظ ، فتخيلت ما عسى أن يخطر ببالها اذا هـــي
استطاعت أن تعرف الحقيقة ، فأشفقت على نفسي ، ولم أستطع أن
أحبس دموعي ، وظللت أسير على رءوس الأصابع حتى لا أوقظ
الأولاد ، وهرعت من خلال الممر الى حجرة عملي ، وهويت على
الديوان باكيا ناشجا •

« انني رجل شريف ، سليل أسرة محترمة ، حلمت طـوال
حياتي بسعادة الحياة الزوجية ، وما خنت امرأتي في يوم من الايام
••• وها هي ذي الان تقبل موسيقيا تافها لان شفتيه حمراوان !••
وهي أم لخمسة أولاد • ••

« لا ، لا ، انها ليست بانسان ، انها كلبة ، كلبة حقيرة ! وهي
تفعل هذا كله قرب غرفة الاولاد، الذين كانت تتظاهر بحبهم تظاهرا!
أتكتب لي ما كتبته ، ثم تتهادى على عنق هذا الرجل في هـــذه
الصورة الوقحة ؟ ماذا كنت أعرف عن هذا كله ؟ لعلها كانت دائما
هكذا ! وهؤلاء الاولاد الذين أعدهم أولادي ألا يمكن أن يكونوا
أبناءها من بعض الخدم ؟

« لو أنني وصلت في الغد ، فاستقبلتني رشيقة لطيفة مرتدية أجمل ملابسها (تخيلت وجهها الجذاب البغيض في آن واحد) ، لظل الوحش الغيور مسجونا في نفسي الى الابد ، ولمزقته • ترى ماذا تقول المربية لنفسها ، وماذا يقول ايجور لنفسه ، وماذا تقول لنفسها ليزا المسكينة التي أصبحت تفهم كل شيء ؟ يا للوقاحـــة ! يا للكذب ! يا للشهوانية الحيوانية التي أعرفها حق المعرفة ! أردت أن أنهض ، فلم استطع • ان قلبي قد بلغ من شدة الخفقان أنني لا أستطيع أن أقف على قدمي • نعم ، سأموت بسكتة القلب ،وبذلك تنتصر علي • انها لاتريد غير هذا • وما هو القتل عندها ؟ لا ، لا ، انها ستسعد بموتي كثيرا ، ولن أتيح لها ذلك • أنا الان هنا ، وهما هنالك يأكلان ، ويضحكان ضحكا قويا ••• نعم ، انه لايزهد بها ، رغم أنها ليست في ريعان الشباب • والحق انها لا بأس بها ، وهي غير خطرة على صحته الغالية • لماذا لم أذبحها قبل الآن ؟ هـــذا ما هتفت به وقد تذكرت لحظة طردتها وحطمت كل ما كان عـلى مكتبي • تذكرت الحالة النفسية التي كنت فيها عندئذ تذكرا واضحا ••• لم أتذكرها فحسب ، بل شعرت مرة أخرى بتلك الحاجـة نفسها الى الضرب والتحطيم • واستبدت بي رغبة جامحة قاهرة في أن أفعل شيئا ، وخرج من رأسي كل ما عدا ذلك • وأصبحت كحيوان أو كانسان أهاجته رؤية خطر يهدد حياته ، فهو يعمل بدقة عظيمة ، دون تعجل ، ولكن دون أن يضيع دقيقة واحدة ، وقـد اتجهت جميع ملكاته الى هدف واحد •

٢٧

— أول حركة قمت بها هي أنني خلعت حذائي • ثـــم

اقتربت من الجدار الذي كانت بنادقي وخناجري معلقة عليه فوق الاريكة ، فتناولت خنجرا دمشقيا لم يستعمل قبل ذلك ، وكـــان منقفا حادا ، فأخرجته من غمده ، فوقع الغمد على الاريكة ، فقلت لنفسي : أرفع الغمد فيما بعد ، أما الان فيجب أن أباشر العمـــل ، والا فقد تفلت مني • ثم خلعت عني معطفي الذي لم أخلعه طـوال ذلك الوقت ، وسرت حافيا بهدوء ، حتى وصلت الى هناك ، فاقتربت من الباب دون ضوضاء وفتحته على حين فجأة •

« ما أزال أرى الى الان تعبير وجهيهما • وانني لاذكره خاصة لانه بث في نفسي فرحا أليما عجيبا • شيء قطيع • هذا ما كنت في حاجة اليه • لن أنسى ، ما حييت ، الذعر الذي لاح في وجهيهما حين رأياني أول لحظة • يخيل الي أنه كان جالسا الى المائدة ، ولكنه ما ان رآني أو سمعني حتى هب واقفا أمام المرآة • كان الرعب مرتسما على وجهه • أما هي فقد كان وجهها يعبر عن الرعب ، وعن شيء آخر غير الرعب • ولو لم يظهر في وجهها غير الرعب لكان من الممكن أن لايقع ما وقع ، ولكنني تخيلت ، في اللحظة الاولى على الاقل ، أنها كانت تفيض استياء وانزعاجا من أنني ظهرت في هذه اللحظة فقطعت عليها ما كانت مسترسلة فيه من حب وسعادة • لقد بدا لي انها كانت لاتريد في تلك اللحظة شيئا غير سعادتها • ولم يدم ظهور هذه المعاني في وجهيها الا لحظة خاطفـــة • فاذا تروهاتسفسكي كأنه يتساءل بينه وبين نفسه : أأكذب عليه أم لا ؟ اذا كان يجب أن أكذب عليه ، فلأبدأ فورا ، والا يكون لنا معه أمر آخر • ولكن ماذا أقول له ؟ ثم ألقى على زوجتي نظرة سائلة • وخيل الي أن ما كانت تشعر به زوجتي من استياء وحسرة قد لفه الان قلق على صاحبها وخوف من أن أمسه بسوء •

« توقفت عند العتبة لحظة ، وأنا أخفي الخنجر وراء ظهري •

« فاذا بتروهاتشفسكي يبتسم ، ثم يقول بلهجة فيها من عدم الاكتراث ما يثير الضحك في مثل هذه الظروف : « كنا نعنى بالموسيقى ••• »

« وأردفت هي تقول مصطنعة تلك اللهجة نفسها : ما كنا ننتظر وصولك •• •

« ولكن لم يتسع الوقت لا لها ولا له أن يكملا كلامهما ، فان الغضب الحانق الذي شعرت به منذ أسبوع قد عاد يستبد بي الآن ، وشعرت مرة اخرى بتلك الحاجة الى التحطيم والعنف والاندفاع المجنون ، واستسلمت لهذه العواطف •

« لم يستطيعا أن يتماكلامهما • اذ بدأ عندئذ ذلك الشيء الذي ذعرا منه أشد الذعر ، وقطع أية محاولة للشرح والتفسير •

« لقد هجمت على زوجتي ، وأنا ما أزال أخفي خنجريوراء ظهري حتى لايستطيع أن يمنعني من طعنها في جنبها تحت الثدي • وكنت قد اخترت هذا المكان منذ البداية • ولكنه رأى الخنجر في تلك اللحظة نفسها ، فاذا هو يمسك يدي بحركة لم أكن أتوقعها منه ، ويصيح قائلا : « أأنت مجنون ؟ عد الى صوابك ، ما بك ؟ النجدة ، النجدة ! •• »

« وخلصت يدي من يده ، وهجمت عليه • والتقت نظراته بنظراتي ، فاصفر اصفرارا عجيبـــا ، ثم اذا به ، وهذا ما لم أكن أتوقعه أيضا ، يفلت مني ، ويهرب الى الباب مارا من تحت البيانو • فاندفعت أجري وراءه ، ولكنني شعرت بثقل في ذراعي الايسر • انها هي تتمسك بي • فحاولت أن أتملص منها ،ولكنها ازدادت تشبثا بي ، ولم تتركنيوشأني • ان هذا الحاجز الذيلم أكن أتوقعه وهذا الثقل الذي يشدني ، وملامستها الكريهة لي ، كل ذلك قد

زادني هياجا • فشعرت انني أصبحت مجنونا كل الجنون ، وأنني رجل رهيب فظيع ، فسرني ذلك • فخلصت ذراعي اليسرى منها وضربتها بكوعي على وجهها • فصرخت وتركت يدي • وأردت مرة أخرى أن أندفع راكضا وراء تروها تشفسكي ، ولكنني تذكرت أنني حاف ، ورأيت أن من المضحك أركض وراء عشيق زوجتي وأنا على هذه الحال • وكنت لا أريد أن أوحي بالضحك علي ، بل بالخوف مني • كنت رغم الغضب المجنون الذي يعصف بي أدرك تمام الادراك الاثر الذي أحدثه في الاخرين حتى لقد كان هذا الاثر الذي أحدثه في الاخرين هو الذي يوجهني ويقود خطواتي بعض الشيء • فالتفت نحو زوجتي ، فرأيتها قد وقعت على أحد المقاعد ، ورفعت يدها الى عينيها المروعتين ، وأخذت تنظر الي • كانت انفاسها خوفا وكراهية ، كما يلاحظ ذلك في فأرة في الفخ حين يقترب عدوها الانسان • وكنت ، من جهتي ، لا أرى فيها غير هذا الخوف وغير هذ الكراهية التي تشعر بها نحوي ، وهما خوف وكراهية ناشئان عن حبها لشخص آخر غيري ، لو أنها سكتت لكان من الممكن أن أكبح جماح نفسي وأن لا أفعل ما فعلت • ولكنها ما لبثت أن أخذت تتكلم وهي تقبض على يدي الممسكة بالخنجر •

« عد الى صوابك ! ماذا بك ؟ ماذا تظن ؟ ليس هناك شيء ، ليس هناك شيء ، ليس هناك شيء ، أحلف لك ، أقسم لك !

« كنت ما أزال مترددا ، ولكن كلماتها الاخيرة هذه التي استنتجت منها نقيضها ، أي استنتجت منها أن كل شيء تم ، كانت تقتضي جوابا عليها ، وكان ينبغي أن يتناسب هذا الجواب مع حالة الغضب الجامح التي وصلت اليها والتي كانت تزداد عنفا لحظة بعد لحظة • ان للغضب قوانينه •

« فصرخت أقول : لا تكذبي يا حقيرة •

« ثم أمسكتها بيدي اليسرى من ذراعها • ولكنها أفلتت مني • فما كان مني الا أن قبضت على عنقها ، وقلبتها على الديوان ، وأنا ما أزال أحمل الخنجر بيدي ، وضغطت على رقبتها ••• يا لرقبتها ما كان أقساها !••• فأمسكت بيدي ، ودفعتها من عنقها ، وكأنني لم أكن أنتظر غير ذلك ، فأغمدت الخنجر في جنبها الايسر •

« حين يدعي الناس أنهم لا يتذكرون ما قاموا به أثناء فورات الغضب فانهم يكذبون • كنت أدرك كل شيء ادراكا واضحا ، ولم أفقد هذا الادراك في لحظة من اللحظات • كنت كلما ازداد غضبي جنونا ، يزداد وعيي وضوحا ، فأرى كل ما أفعله رؤية جلية • لم أفقد وضوح شعوري لحظة واحدة • لا أستطيع أن أقول انني كنت أعرف سلفا ما قد أقوم به من عمل • ولكنني كنت في اللحظة التي أقوم فيها بأي عمل ، أو ربما قبل ذلك بثانية ، أحس بما سأقوم به ، كأنما لأدع لنفسي حرية الاختيار ، لأستطيع أن أقول لنفسي فيما بعد انه كان في وسعي أن أتوقف • كنت أحس أنني سأطعنها تحت الأضلاع ، وأن الخنجر سيدخل • وفي اللحظة التي كنت أنفذ فيها هذا الفعل ، كنت أعرف أنني أقوم بعمل فظيع لم أقم به من قبل ، وأن هذا العمل ستكون له نتائج مروعة • ولكن ذلك كله ينقضي في ومضة ، ويعقبه الفعل فورا • وكنت أشعر شعورا واضحا وضوحا عجيبا بالعمل الذي أقارفه • أحسست بالمقاومة الخفيفة التي اعترضت طريق الخنجر حين اصطدم بالمشد الذي يشد جسم زوجتي تحت ثوبها ، وأحسست بشيء آخر أيضا ، ثم دخلت السكين في اللحم اللين • ولقد أمسكت الخنجر بيديها ، فتقطعت أصابعها ، ولكنها لم تستطع أن تقف الخنجر عن النفاذ في جسمها •

« أثناء اقامتي في السجن ، حين وقعت الثورة الأخلاقيـة في نفسي ، أمعنت النظر طويلا في تلك الدقيقة ، وتذكرت ما كان يمكنني أن أفعله ، وفكرت . أتذكر الآن أنني خلال لحظة خاطفة سبقت الفعل ، أحسست احساسا فظيعا بأنني أقتل ، بأنني أقتل امرأة ، امرأة لا حول لها ولا قوة ، امرأة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها ، هي امرأتي . وأغلب الظن أنني بسبب ذلك اليقين المروع انما سللت الخنجر فورا بعد أن أغمدته ، متمنيا أن أتدارك الاثم الذي اقترفت . وظللت خلال لحظة من الزمن واقفا بلا حراك ، أنتظر ما سيعقب ذلك ، وأريد أن أعرف هل من سبيل الى اصلاح الخطأ .

« وكانت قـد انتصبت واقفـة ، وهي تصـرخ : « دادا ... دادا ... لقد قتلني » .

« وسمعت المربية الصراخ ، فهرعت الينا ، ووقفت عند عتبة الغرفة . كنت ما أزال واقفا أنتظر ولا أريد أن أصدق ...

وفي هذه اللحظة تفجر الدم من تحت المشد ، فأدركت عندئذ أنني قد ارتكبت العمل الذي لا سبيل الى اصلاحه ، فقررت فورا أنني أحسنت صنعا ، وأنني أردت ذلك ، وكان لا بد لي أن أفعل ما فعلت . وانتظرت أن تسقط على الارض . هتفت المربيـة : « يارب ! » وهرعت اليها ، وفي تلك اللحظـة رميـت الخنجـر ، والتفت نحو الباب لأخرج من الغرفة . « يجب على المرء أن يكون هادئا ، وأن يعرف ماذا يعمل » . هذا ما قلته لنفسي دون أنظر اليها أو الى المربية .

« كانت المربية تصيح وتنادي الخادمة . وخرجت الى الممر ، وبعثت بالخادمة ، ثم اتجهت الى غرفتي . « ما الذي يجب أن أعمله الآن » . طرحت على نفسي هذا السؤال ، وأدركت جوابه فورا . فلما دخلت الى حجرة عملي ، اقتربت من الجدار ، وتناولت مسدسا ،

ونظرت فيه ، وكان محشوا بالرصاص ، فوضعته على المنضدة • ثم رفعت غمد الخنجر ، واستلقيت على الديوان •

« ظللت على هذه الحال مدة طويلة ، لا أفكر في شيء ولا أتذكر شيئا • وسمعت هرجا ومرجا في البيت • ها قد وصل شخص ، وها هو ذا آخر يصل • وسمعت وقع أقدام ايجور ، ورأيته يدخل بالحقائب الى غرفتي • كأن هذا كان ضروريا • قلت له :

ـ هل تعرف ماذا وقع ؟ امض الى البواب فقل له أن يستدعي الشرطة •

« فلم يقل ايجور شيئا ، وخرج • فنهضت ، وأغلقت الباب ، وتناولت علبة سجائري فأشعلت سيجارة • ولكنني نمت قبل أن أنهيها ، من فرط النعاس • أغلب الظن أنني نمت ما يقرب من ساعتين • وأذكر الآن أنني رأيت فيما يرى النائم أن علاقاتنا طيبة ، وأننا تشاجرنا ثم تصالحنا ، وأن ثمة شيئا رغم ذلك يمنع علاقاتنا من أن تكون طيبة تماما • ثم استيقظت على طرقات الباب • قلت في نفسي : « انهم رجال الشرطة • يخيل الي أنني ارتكبت جريمة قتل • ولكن لعل الطارق هو زوجتي • ولعله لم يقع شيء • • » •

« واستمر طرق الباب • فظللت صامتا لا أجيب ، وظللت أطرح على نفسي هذا السؤال : هل وقع الأمر ، أم أنه لم يقع ؟• ثم قلت : بل لقد وقع ، نعم وقع • وتذكرت المقاومة التي لقيها خنجري حين اصطدم بالمشد ، وتذكرت السكين وهي تغوص في اللحم • فشعرت من ذلك ببرد في ظهري • نعم ، لقد قتلت • والآن جاء دوري • هذا ما قلته لنفسي •

« وكنت أعرف مع ذلك أنني لن أنتحر • ولكنني رغم معرفتي هذه بأنني لن أنتحر ، نهضت وتناولت المسدس مرة أخرى • انه

لشيء عجيب : تذكرت أنني في الماضي هممت أن أنتحر عـدة مرات ، بل لقد كنت منذ قليل ، في القطار على أتم الاستعداد لأن أنتحر • وكان يبدو لي ذلك سهلا ، لأنني كنت أتصور الدهشة التي ستصيب زوجتي حين تعلم بذلك • أما الآن فانني لا أستطيع أن أقتل نفسي ، بل انني لا أستطيع أن أفكر في هذا • « لماذا أقتل نفسي ؟ » هكذا تساءلت ، ولم أستطع أن أفوز بجواب على هذا السؤال •

« وطرق الباب مرة أخرى • قلت : يجب أن أرى أولا من الطارق • وفي الوقت بعد ذلك متسع • فوضعت المسدس على المنضدة وغطيته بغطاء • ثم اقتربت من الباب وسحبت المزلاج • انها أخت زوجتي : امرأة أيم ، طيبة ، غبية بعض الغباء •

فلما رأتني صرخت تقول :

ـ فاسيا • ما هذا ؟

ثم أخذت دموعها تتفجر من عينيها ، ذلك أن من عادتها أن تبكي بسهولة •

فقلت بفظاظة :

ـ وماذا تريدين ؟

كنت أشعر أنه ما يجب أن أخاطبها بغلظة ، ولكنني لم أستطع أن أصطنع لهجة أخرى •

ـ فاسيا ، انها تموت • هكذا قال ايفان زاها روفتش (لقد كان ايفان زاها روفتش طبيبها ، مستشارها) •

فسألتها :

ـ أهو هناك ؟

سألتها هذا السؤال ، وعاودني سخطي وحنقي مرة أخرى •

وأردفت أقول :

ـ ماذا تريدين ؟

ـ اذهب اليها • حقا انه لشيء فظيع !•••

فسألت نفسي :

ـ هل يجب أن أذهب اليها •

ثم رأيت فورا أن ذلك واجب ، وأن الأمور ربما كانت تجري دائما على هذا النحو ، وأن الزوج الذي يقتل زوجته ، كما فعلت أنا ، ينبغي له أن يذهب اليها • قلت لنفسي :

ـ ما دام هذا واجبا ، فلأذهب اليها • وسيبقى في الوقت متسع لأن أقتل نفسي اذا دعت الحاجة الى ذلك •

وتبعت أختها ، وأنا أقول لنفسي : « سيكون كلام ، وسيكون تمثيل ••• ولكنني لن أستسلم • » • ثم قلت لأختها : « انتظري ، فمن الحماقة أن أمضي اليها بلا حذاء • ولأنتعل خفي على الأقل »•

٢٨

ـ شيء غريب : حين خرجت من غرفتي واجتزت هذه الحجرات المألوفة عندي ، أملت مرة أخرى أن لا يكون قد وقع شيء ••• ولكن الرائحة التي يجيء بها الأطباء دائما ما لبثت أن زكمت أنفي : يودوفورم ، حامض الفوليك ••• قلت لنفسي : لا ••• لقد وقع الأمر • فلما مررت قرب غرفة الأطفال رأيت ابنتي ليزا • انها تنظر الي بعينين تفيضان بالذعر • وتراءى لي ان أولادي الخمسة هناك ، وانهم ينظرون جميعا الي • واقتربت من غرفتها • ففتحت الخادمة الباب ، وخرجت • كانت ممددة على الوسائد وقد فكت أزرار قميصها ، ووضع على جرحها شيء • ان ان رائحة اليودوفورم تملأ الغرفة • وقد خطف بصري خاصة

أن وجهها متورم مزرق ، ولا سيما قرب الأنف وتحت العينين •
ان ذلك من آثار الضربة التي سددتها الى وجهها بكوعي حين أرادت أن تمنعني من ملاحقته • لم يبق فيها شيء من جمال ، لم يبق فيها الا شيء يثير الاشمئزاز • قالت أختها :

ـ اقترب ، اقترب •

قلت لنفسي : لعلها تريد أن تعترف بكل شيء ، وأن أغفر لها • نعم ، انها تموت ، وأستطيع الآن أن أفعل (قلت لنفسي هذا وأنا أريد أن أكون سمحا كريما) •

واقتربت منها • فرفعت نحوي ، بجهد وعناء ، عينيها اللتين كانت احداهما متورمة ، وقالت وهي تتوقف عند كل كلمة :

ـ انتصرت ••• قتلتني ••• (قالت ذلك وظهر في وجهها ، من خلال الآلام الجسمية واقتراب الموت ، ظهر في وجهها ذلك الكره الذي أعرفه حق المعرفة ، ذلك الكره البارد الحيواني) ••• ولكن الأولاد •• الأولاد •• لن أسمح لك بأخذهم •• ستأخذهم هي (أشارت الى أختها) •

لم تر أن من الضروري أن تشير بكلمة واحدة الى خطيئتها ، الى خيانتها ، وذلك كان أهم شيء عندي •

وأردفت تقول وهي تنظر الى ناحية الباب :

ـ نعم ••• تستطيع أن تفاخر بما عملت •••

وأخذت تنشج • كانت أختها واقفة عند عتبة الباب يحيط بها أولادنا •

ـ أنظر ماذا صنعت ! •••

« نظرت الى الأولاد ، ثم نظرت الى وجهها المتورم ، فرأيت فيها لأول مرة كائنا انسانيا •

« كل ما كان يزعجني ، وكل ما كنت أشعر به من غيرة بدا

لي تافها تفاهة مطلقة اذا قيس بما صنعت يداي • وددت لو أضع وجهي على يد امرأتي لأقول لها : « اغفري لي » • ولكنني لم أجرؤ أن أفعل ذلك •

« كانت صامتة ، مغمضة العينين ، لعلها لا تملك من القوة ما يمكنها من الاستمرار في الكلام • ثم ارتعش وجهها المشوه فجأة ، وتشنج • فدفعتني عنها في يسر • وقالت :

ـ لماذا كل هذا ؟ لماذا ؟

فقلت :

ـ سامحيني •

ـ أسامحك ؟ هذا سخف ! ليتني أستطيع أن لا أموت (صاحت تقول ذلك وهي ترفع رأسها ، واتجهت عيناها المحمومتان الي) • نعم ، لقد انتصرت علي • انني أحتقرك • آي ••• آه (كذلك صرخت هاذية مذعورة) • هيا اقتلني ، اقتلني ، لست خائفة • ولكنهم جميعا ، جميعا ، وهو ••• لقد ذهب ••• لقد ذهب •

« وأخذت منذ تلك اللحظة تهذي طوال الوقت • وأصبحت لا تعرف أحدا • وماتت في ذلك اليوم نفسه عند الظهيرة • وقد نقلوني قبل ذلك الى مركز الشرطة ، وقادوني من هناك الى السجن•

« مكثت في السجن أحد عشر شهرا أنتظر صدور الحكم ، وفي أثناء ذلك فكرت في ماضي وفهمت • كان النور قد أخذ يتسرب الى شعوري منذ اليوم الثالث • ففي ذلك اليوم أخذوني الى حيث كانت •••

أراد أن يتم كلامه ، ولكنه لم يستطع أن يحبس دموعه فتوقف عن الكلام • ثم بذل جهدا قويا ، فتابع يقول :

« لقد بدأت أفهم ، حين رأيتها في تابوتها ••• »

قال ذلك ثم راح يبكي مرة أخرى ، ولكنه ما لبث أن أسرع بكمل حديثه :

« فحين رأيت وجهها الميت فهمت ما صنعت يداي : فهمت أنني أنا الذي قتلتها ، وأن هذا الكائن الذي كان حيا حارا قد أصبح بسببي أنا ساكنا ، أصفر كالشمع ، باردا ، وأن هذا العمل لا سبيل الى اصلاحه ، في أي مكان ، بأية وسيلة • ان من لم يعش هذه التجربة لا يستطيع أن يفهمها •••

« أوه ••• أوه ••• أوه • » كذلك صرخ عدة مرات ثم سكت

وظللنا صامتين مدة طويلة • كان يبكي ناشجا ، ويرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه دون أن يقول شيئا ، وقد رق وجهه واستطال ، حتى لكأن فمه أصبح يحتله كله • ثم قال فجأة :

« نعم ، نعم ، لو كنت أعرف ما أعرفه الآن ، لجرت الأمور مجرى آخر • لو كنت أعرف ما أعرفه الآن لما تزوجتها مهما يكن من أمر ••• ولما تزوجت البتة » •

وصمتنا مرة أخرى •

سامحني •

قال لي ذلك ، وأشاح بوجهه عني ، ثم تمدد على المقعد وغطى جسمه بغطاء •

فلما وصل القطار الى المحطة التي كان علي أن أنزل فيها ، كانت الساعة قد بلغت الثامنة من الصباح ، فاقتربت لأودعه •

لا أدري أكان نائما أم كان يتظاهر بأنه نائم • ولكنه لم يتحرك • فلمسته بيدي ، فأزاح الغطاء ، فخيل الي أنه لم يكن نائما • قلت وأنا أمد اليه يدي :

ـ وداعا .

فمد يده ، وابتسم ابتسامة خفيفة لا تكاد ترى ، ولكـــن ابتسامته هذه كانت من شدة تأثيرها في النفس أنني وددت لو أبكي .

ـ سامحني .

هذا ما قاله . وتلك هي الجملة الأخيرة التي كان قد ختم بها قصته كلها .

. . .

صدر حديثا عن

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

دراسات عربية

سلسلة يشرف على اصدارها

الدكتور عزة النص وسامي الدروبي

ظهر منها

الوطن العربي – الاتجاه السياسي والملامح الاقتصادية

تأليف الدكتور عزة النص

دراسات في الفكر السياسي

سلسلة يشرف على اصدارها

الدكتور جمال الأتاسي

ظهر منها

تفكير كارل ماركس – ١ – نقد الدين والفلسفة

تأليف جان ايف كالفيز

ترجمة جمال الأتاسي وسامي الدروبي